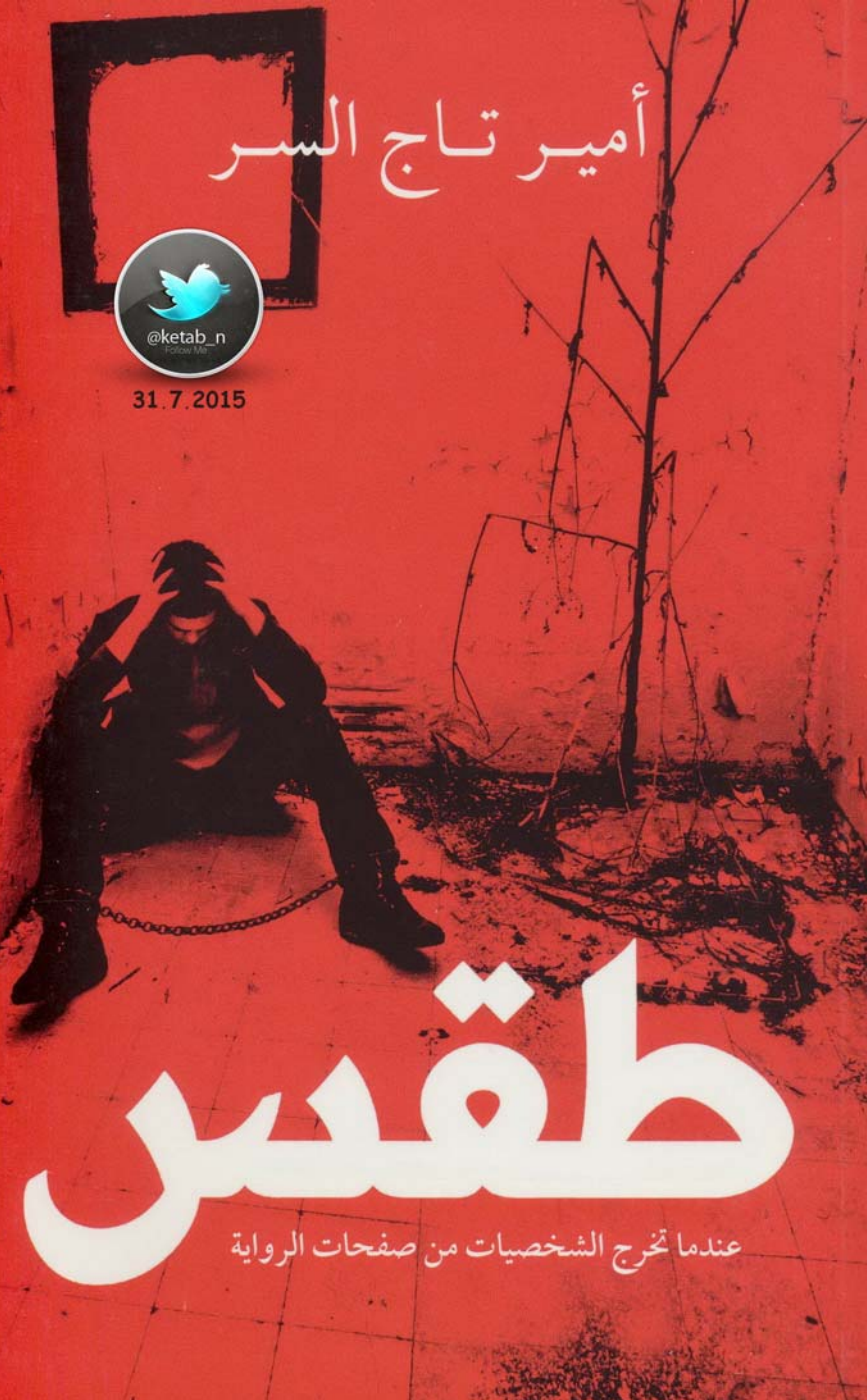

أمير تاج السر
@ketab_n
Follow Me
31.7.2015
طقس
عندما تخرج الشخصيات من صفحات الرواية

أمير تاج السر



طقس

روايـة




طقس

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.bqfp.com.qa

دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



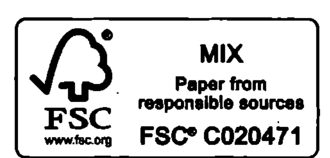


كلمة بلومزبري وعلامة ديانا هما علامتان مسجلتان باسم شركة بلومزبري للنشر.

صدرت الطبعة الأولى عام ٢٠١٥

الترقيم الدولي:
الغلاف العادي: ٩٧٨٩٩٢٧١٠١٨٨٥

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١



تمت الطباعة في بريطانيا العظمى بمعرفة CPI Group (UK) Ltd, Croydon CR0 4YY

زورونا على موقعنا www.bqfp.com.qa للمزيد من المعلومات حول كُتّابنا ومؤلفاتهم.

في أحد الأيام سألتني امرأة؛ في وجهها لُغة، وفي عينيها لُغات:

- كيف ترى الشمس؟

قلت:

- التي أريدها أن تشرق.
- والقمر؟
- ذلك الذي لن يخسف، حتى وهو يخسف.
- والبحر؟
- ذلك الذي لن يكون أزرق فقط.
- والحُب؟
- ذلك الذي أتحسسه ولا أراه.
- والإنسان؟
- مَن سعى ليكون إنسانًا.
- كيف تكتب إذن؟
- بالشمس والقمر والبحر والحب والإنسان.

أ. ت


Twitter: @ketab_n

١

حين كتبت روايتي الأخيرة «أمنيات الجوع» في حوالي شهر واحد فقط، مدفوعًا بإيحاءاتها الكثيرة، ومداخلها ومخارجها العديدة التي اتسعت أمامي فجأة بلا عوائق، ونشرتها بعد ذلك، لم أكن أظن قَطُّ أنني سأعلق في مشكلة تبدو بلا حل ممكن، وسيطاردني كابوس تداعيات تلك الرواية هكذا ولا أستطيع برغم جهودي التي بذلتها كلها أن أفلت منه.

كنت قد عدت من رحلة رائعة إلى كوالالمبور؛ تلك المدينة الشرقية التي هزتني بشدة، وتمنيت أن أكتبها يومًا وأكتب عنفوانها الشقي في نص يليق. التقيت هناك بمثقفين، ورأسماليين، ومعلمين، وفتيات ليل، وصعاليك في الشوارع، وشدتني عدة شخصيات صادفتها، ولمحت في طلَّتها المميزة إيحاءات شخصيات روائية، ستُزين أي نص يحتملها.

كان «اليونج تولي»، أو «الماستر تولي» كما يسمونه، معالج الإبر الصينية المعروف بشدة في تلك البلاد، الذي راقبت تماسكه برغم العمر، وابتسامته المحبوكة جيدًا، وأناقته الشديدة، وتسليطه الضوء على مهنة قديمة، من تلك الشخصيات التي بهرتني بشدة.

سكرتيرة عيادته «أنانيا فاروق»، التي لم أعرف لها جنسية محددة وسط ذلك الخليط من الأجناس في مدينة فائرة، هي أيضًا شخصية سلسة، وتبدو بطولها اللافت للنظر، ومساحيق وجهها الكثيفة، وظلال عينيها الخضراء والحمراء، وفساتينها التي لا تخضع لأي موضة معروفة في أي مكان، وأحذيتها المفصلة حتى من الخيش والكرتون المضغوط، وجيش المرضى ومرافقيهم، الذي يغازلها إما علنًا وإما في صمت، نموذجًا حيًّا لأميرة من الشرق الأقصى، تقوم بنزهة نزقة في بلد مرهق من بلاد العرب، في نص من المفروض أن يُكتب ذات يوم.

التقيت بالدكتور الأمريكي سابقًا: «فيكتور جريلاند»، والياباني حاليًّا: «هوشي هيسوكا»، أستاذ الموسيقى في أحد المعاهد اليابانية، عازف الجيتار المدهش بحق، ومطرب الأطفال وأمهاتهم، في كل وقت، وأي مكان كما ذكر، والذي غادر بلاده في عام ١٩٧٧، ولم يعد إليها مُطلقًا بعد ذلك. تعارفنا في ممر ضيق بالسوق الصيني المحتشد بالسلع والناس والحيل، وتجادلنا طويلًا في لقاءات عدة بعد ذلك، في مسألة الهوية، وكيف يُصبح آسيويًّا صلدًا، يحمل اسمًا يابانيًّا قديمًا يعني «المحارب»، مَن وُلِد في أمريكا وعاش فيها حتى بلغ الأربعين؟

كان الدكتور عجوزًا، لكنه حيوي، ونحيف جدًّا حتى لكأنه طيف، وكان وجوده في ماليزيا، وجودًا روتينيًّا، حيث اعتاد زيارتها في كل عام لأنه أحبَّها بجنون، ولأنه من زبائن عيادة «تولي» للوخز بالإبر الصينية. لم يكن يشكو من أي نقص يستدعي ترصيع رأسه ويديه وساقيه بالإبر، كما أخبرني، ويأمل أن يبلغ

المئة واقفًا على قدميه. هي مجرد صيانة دورية يقوم بها لوظائفه الحيوية في كل عام، ويعود إلى بلاده المكتسبة أكثر تفاعلًا مع الحياة. وكانت فلسفته في محو هوية الغرب، واكتساب هوية الشرق المختلفة ببساطة هكذا، هي أن الشرق، حين تُحبه وتحترمه، وتؤدي له خدمات جليلة، لن ينساك أبدًا، سيُبكيك بعطف حين تمضي، وستجد العجوز الذي جلست بجانبه في أحد المقاعد في حديقة عامة، أو في قمرة قطار سريع ذات يوم، يمشي منكس الرأس في جنازتك، وفتاة الجيران الصغيرة ذات الأحد عشر عامًا تضع الزهور على قبرك في كل فرصة سانحة، على عكس بلاده، حيث يموت العباقرة والمكتشفون ورواد الفضاء يوميًّا بحوادث الطرق، وجلطات الدماغ، ورصاص القناصين الفجائي في الشوارع، ولا يفتقدهم أحد.

لم تكن نظرية مُحكمة في رأيي، ولا تستند إلى حجج قوية، لكنني لم أجادل فيها كثيرًا، وقد عرفت أن الرجل كان يساريًّا مناهضًا للرأسمالية، ولسياسات أمريكا الخرقاء كما يُسميها، واعتبر حروبها المتعددة، خصوصًا حرب فيتنام، وغزو أفغانستان، والعراق مؤخرًا، جرائر كبرى لن تستطيع أكبر ممحاة تاريخية أن تمحوها.

كانت الحكايات الغريبة كلها في شارع «بكيت بنتاج» في وسط المدينة، شارع العرب كما يسميه العرب أنفسهم، حيث المطاعم الشرقية والغربية، ومولات التسوق العملاقة، ومحلات التدليك التي يمكن أن تنقلب في أي لحظة إلى جحور أفاعٍ. كان المتسولون يلونون أجسادهم بألوان قوس قزح، والسُّياح يترنحون

بثقل الامتصاص القوي، وكاميرات الكانون والنيكون والياشيكا، وعازفو الأكورديون والساكسفون، والجيتارات الممزقة، يقيمون احتفالات ضاجة في الأركان، وإشارات المرور الحمراء، والناس متجمهرون أو ماضون في طريقهم.

لقد فُتنت كثيرًا بالمقاهي المتعددة، تمنيت أن أدمن أو يدمنني أحدها وآتي يوميًا لأكتب فيه كما أفعل في بلادي، لكن ذلك لم يحدث مع الأسف بسبب انشغالي الشديد في أثناء الرحلة.

كان كل شيء موحيًا وكل شيء يدفع للكتابة.

عدت بذكرياتي تلك إلى بلادي مبتهجًا، أحس بفوران في الدم، وحموضة في المعدة، وأتوقع أن يسرقني نص جديد في أي لحظة من حياتي اليومية المعتادة، حين أكون بلا كتابة ولا إيحاء، ويكون مُدعمًا بتلك الذكريات، وقد هيأت نفسي لذلك بالفعل.

فكرت أن يكون الصيني معالج الإبر، «الماستر تولي»، معالجًا محتملًا لنار الهوى في صدر عاشق منهزم سيُكتب، أو عاشقة هي أيضًا أحبَّت وانهزمت بلا خيار. أن تكون السكرتيرة «أنانيا فاروق»، تلك الأميرة الهمجية التي ستتسكع في أزقة همجية، باحثة عن رجل شاهدته للحظة في متحف بدائي، ولم تنسه قَطُّ. أن يكون اليساري «هوشي هيسوكا»، هو مدرِّس علم السياسة في جامعة ممتلئة بالطلاب، ومحرضًا لثورة كبيرة، ستهب في داخل النَّص الذي سأكتبه، وتطيح بديكتاتور عظيم.

فكرت أن أنقل فوران الشوارع كلها، والحدائق كلها، إلى بلادي الراكدة برغم محنها المتعددة. وقطعًا سيظهر أفندي

عرفان، سائق عربة الأجرة، الذي رافقني طيلة بقائي هناك، وأغرقني بتفاصيل ماضيه وحاضره، ورغبته المؤجلة لقضاء فريضة الحج، سائقًا هنا أيضًا، ولكن لعربة أجرة أخرى، مغبرة وبائسة، ولا تشبه تلك المزركشة التي اعتاد عليها طوال حياته.

لكن ذلك كله لم يحدث، ولا أمل في حدوثه الآن، وقد علقت في تداعيات روايتي «أمنيات الجوع»، وما كنت أظن أنها رواية خطرة إلى هذا الحد، حين كنت أكتبها منتشيًا بلا وعي.

٢

كنت قد نشرت «أمنيات الجوع» في دار نشر محلية، أتعامل معها أحيانًا، قبل سفري إلى ماليزيا بثلاثة أشهر. كانت رواية متوسطة الحجم تتكون من مئتين وعشرين صفحة، وتتحدث بخيال صرف، لا علاقة له بالواقع من قريب أو بعيد، عن رجل أربعيني اسمه «نيشان حمزة نيشان»، كان أُميًّا، يعمل ساعيًا في مدرسة ابتدائية، مهمته إعداد الشاي والقهوة وجلب الإفطار الروتيني للمُعلِّمين، والركض بين المكاتب المختلفة حاملًا ملفًّا أو ورقة أو نداء، وتعلم القراءة والكتابة بإصرار غريب، وحصل على الشهادة الابتدائية والمتوسطة والثانوية بعد أن تجاوز الخامسة والأربعين. وقبل أن يدخل الجامعة بفترة قصيرة، وكان قد قرر أن يدرس مواد القانون، ويصبح قاضيًا، أصيب بمرض الفصام الموسمي الموروث في عائلته، والذي يصيبه لشهر أو شهرين في العام، ويجعله يستمع إلى أصوات الوهم التي تناديه، يُعارك نفسه، يتحرش بالحياة والناس، ويصنع دمى من القماش الرخو، يحشوها بألعاب الأطفال المتفجرة، ويُلقيها على الرجال المتأنقين والفتيات الجميلات في الشوارع، وربما حمل سكينًا حادة وهاجم

بها أحدًا بلا تمييز، أو ارتدى قناع شخصية عامة، مثل رئيس البلاد، أو قاضي القضاة، أو حتى بائع خضار لامع، أو خياط مشهور في المدينة، وتصرف على أنه تلك الشخصية. وحين تغيب أعراض الفصام أو تضعف تدريجيًّا، في لحظات استراحة، يعود إلى حياته اليومية؛ شخصًا عاديًّا لا يذكر إلا ما يذكره به الناس، يعتذر لكل من أصيب برذاذ من الهيجان، ويعاود محاولاته المستمرة لدراسة القانون.

بالقرب من نهاية النَّص، وفي يوم عادي من أيامه التي بلا هياج، يحس نيشان بإعياء غريب، يشعر بأمعائه تتقلص، وجسده يحترق، ورأسه يدور، وجيش من الألم يتقاتل في صدره، يترنح بلا سند من أحد حتى يصل إلى المستشفى الحكومي العام، وهناك يُفحص بتأنٍ، وتُكتشف إصابته بسرطان في الغدد بلا شفاء محتمل.

لقد امتلأ النَّص بشخصيات عديدة، منها شخصية لسيدة مجتمع راقية تضخ التعالي باستمرار، وعسكري مسكين حاول أن ينقلب على الحكم بلا خبرة ولا مؤهلات وأُعدم رميًا بالرصاص، وسائق شاحنة من عائلة نيشان كانت مهمته مراقبته حين يزلزل الهيجان أيامه، وممرضة اسمها «ياقوتة» التقاها نيشان حين كانت تعمل في مستشفى الأمراض النفسية، وأحبَّها، وحاولت هي مؤازرته في أثناء محنته. لكن نيشان حمزة كان يمسك بالخيوط كلها، ويوزعها على الشخوص كل حسب دوره.

في الحقيقة، وفي كل أعمالي التي كتبتها تقريبًا، كنت آتي بأسماء غريبة؛ أسماء من غير المعتاد تداولها في البلاد، أو

أسماء تُستخدم على استحياء، ولدى قبائل معينة. ليس كل الشخصيات بالطبع، ولكن تلك التي تقوم بأدوار حيوية داخل النَّص، أو التي أريدها أن ترسخ في أذهان مَن يلتقيها في الكتب. أيضًا لم أكن أستخدم الأسماء الثلاثية قَطُّ، ولا أدري لِمَ استخدمت اسم «نيشان حمزة نيشان» ثلاثيًّا في هذه الرواية. لقد تنبَّهت إلى ذلك في أثناء الكتابة المندفعة، ومنعني من حذف الاسم الثلاثي إيقاعُه الذي أحسست به، والذي لن يكون مرضيًا بالنسبة إليَّ إذا ما تُرك ثنائيًّا فقط.

لم أكن أعرف شخصًا اسمه نيشان على الإطلاق، ولا صادفني في قراءاتي أو أسفاري المتعددة، داخل الوطن وخارجه، شخصٌ يحمل ذلك الاسم. وقد فكرت كثيرًا حين كتبته، فكرت باستغراب وأنا أسأل نفسي من أين جاء، ولم أتوصل إلى جواب محدد. على أنه كان اسمًا مطروقًا بلا شك، ومن المؤكد أنه موجود في بعض بلاد العرب، أو أفريقيا، ولكن ليس في بلادنا كما أعتقد، بأي حال من الأحوال.

أذكر في احتفال تدشين الرواية، الذي أقمته في قاعة بسيطة مخصصة لليالي الأفراح غالبًا، وحضره جمع من القُرَّاء والمهتمين بالشأن الثقافي، قبل سفري بيومين فقط، أن سألتني فتاة جميلة، في صوتها إيحاء فتنة، وفي لغتها تعرج أخَّاذ:

- كيف تنتقي أسماءك في الكتابة أستاذي؟ أرى اسم «نيشان حمزة نيشان» مطابقًا بقوة لشخصية البطل وسلوكه، ولو كان الرجل حقيقيًّا لحمل ذلك الاسم!

بالطبع لم أكن أملك ردًّا منطقيًّا على تساؤلها، ولا توجد

لديَّ رؤية متماسكة حول الأسماء، ولا أي كيفية دقيقة لاختيارها، ولا أستطيع الجزم بأن الأسماء التي أكتبها، تشبه شخصياتها فعلًا داخل النصوص. لكنَّ سؤال الفتاة الجذابة أعجبني، وشعورها بأنني ألبست بطلي اسمًا مطابقًا، أعجبني أيضًا.

قلت:

- شيء في الإحساس عزيزتي، لا أقل ولا أكثر.

ولأن شخصية أخرى مثل نشار بائع العطارة الشعبية، زائغ العينين، في السوق القديم، كان حاضرًا أيضًا في عدد من الدروب المتعرجة، داخل الرواية، فيبدو أن فتاة أخرى أحبَّته أو أُعجبت به، لأنها وقفت من بين الحضور، وكانت مشرقة وهي تسأل:

- هل سيُصادف أن ألتقي يومًا بنشار في السوق القديم، ويغازلني؟

قلت:

- ربما.

وابتسمت، وابتسم الحاضرون.

كان من بين الذين حضروا حفل التدشين ذاك، واصطفوا للحصول على توقيعي على النُّسخ التي اقتنوها، رجل في نحو السابعة والأربعين كما قدَّرت. كان نحيفًا، مقوَّس الظهر قليلًا، يرتدي الثوب والعمامة التقليديين، وحذاء عاديًّا من جلد الماعز الرخيص، ويبدو مهتزًّا في وقفته، يتلفت بلا انقطاع.

كان من الأشخاص الذين يلفتون النظر في أي مجتمع، وقد

لفت نظري بالفعل برغم الزحام، وكثرة الأسئلة والأجوبة، واستعجال البعض أن يحصلوا على حوار قصير كما هي العادة في كل شأن ثقافي. رأيته يحتك بفتاة صغيرة تضع على وجهها مساحيق وظلالًا بلا تناسق، وتنتظر أمامه، بشكل بدا لي غير متعمَّد لكنه نتيجة اضطراب. رأيت الفتاة تلتفت ناحيته، وقد تغيَّر وجهها، ثم تخرج من الصف وتمضي إلى الخارج حاملة نسخة بلا توقيع. رأيته يفتح الكتاب، يطالعه لدقيقة ثم يُغلقه، وحين وقف الرجل أمامي في النهاية، ووضع نسخته على الطاولة لأوقعها، لم يمد يده محييًا كما فعل الآخرون؛ ألقى النسخة بإهمال، ووقف وكانت عيناه بعيدتين، تحدقان في أي اتجاه تصادفانه بلا تركيز. سألته عن اسمه لأكتب له الإهداء على الكتاب، فالتفت ناحيتي، وكانت فرصة لأدون بريقًا نابضًا فر من عينيه لحظة وانطفأ. قال:

- ليست لي ولكني سأُهديها إلى حبيبتي رنيم. نسختي سأحضرها لك ذات يوم لتوقعها. اكتب فقط إلى العزيزة الغالية رنيم، مع محبتي.

كتبت الإهداء إلى عزيزته الغالية رنيم، مع محبته لا محبتي، على الصفحة الأولى، ومددت إليه الكتاب، فالتقطه بسرعة، ومضى يترنح. كان غريبًا بالفعل، مضطربًا إلى أقصى درجة، ولم يبدُ لي مُطلقًا في هذه السن، وذلك الاهتزاز الظاهر، والملابس البلدية القحة، عاشقًا محتملًا لفتاة اسمها رنيم، وأعرف أنه اسم مُستحدث في البلاد لا يمكن أن تُسمَّى به امرأة من جيل قديم يناسبه. لكني لم أدقق كثيرًا، ولم ألبث أن نسيته تمامًا وسط

آخرين تجمهروا من حولي، وأصدقاء مقربين أرادوا أن نُكمل الليل في مكان آخر.

حين خرجنا بعد ذلك إلى الطريق، وبعد أن انتهى كل شيء، كان عاشق رنيم المهتز، لا يزال يترنح حول المكان، حاملًا «أمنيات الجوع» في يده اليمنى، وفي يده اليسرى سيجارة مشتعلة.

فجأة رأيته يقترب مني بخطوات سريعة، يتوقف أمامي، ثم يسألني بلا مقدمات، وهو يلهث:

- متى تعود من رحلتك يا أستاذ؟

كان سؤاله سيكون عاديًّا جدًّا لو أن رحلتي كانت معلنة؛ في الحقيقة لم تكن مؤتمرًا ثقافيًّا ليعرف أخباره أحد، ولم تكن لعلاج في الخارج ليكتب أحدهم في صحيفة أنني مريض وأسافر للعلاج، ولا أذكر أنني أشرت إلى سفر قريب في صفحتي الشخصية في موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك».

كانت رحلة خاصة من برنامج رحلات أقوم بها من حين إلى آخر، لرؤية بلاد جديدة، واكتساب خبرات أحتاجها بشدة في عملي الكتابي. ولم أُخبر بها حتى أصدقائي ممن يقفون معي الآن، ويحاولون حمايتي من رجل ظنوه مهاجمًا.

قلت:

- لا أدري.

وابتعدت، وأنا أحاول أن أفتش في ذهني عن مصدر، ربما عرف عاشق رنيم، كما سميته، عن طريقه قصة سفري. ولكنني لم أهتدِ إلى أي شيء. وكان ما أردت إقناع نفسي به، حتى لا أزيد ذهني إرهاقًا، هو أن الرجل قد خمن بأنني مسافر، ولا شيء

آخر. وبرغم ذلك لم أنم جيدًا طيلة اليومين اللذين سبقا سفري.
كنت أصحو بشهقة ارتجاع المريء التي تغزوني كلما اضطربت لسبب أو لآخر، أو توترت بفعل نص أكتبه، أرى رنيم في حلم قاسٍ، فتاة ناعمة في أحضان وحش، وأرى عاشقها الذي لا يُشبه العشاق، يصفعها بنسخة موقعة من «أمنيات الجوع»، ويشويها بسيجارة مشتعلة على يده اليسرى. وحين حملت حقيبتي، واتجهت إلى سكة السفر، تنفست بعمق، وأنا أحاول أن أتخيل بلادًا جديدة، ربما أعود منها بتوابل شرقية رائعة تُجدد غليان النصوص في موقد كتابتي.

٣

أول شيء فعلته حين عُدت من رحلتي الماليزية الرائعة هو أن بحثت عن «أم سلمة»، وكانت أرملة متوسطة العمر مات زوجها العسكري في حرب الجنوب في أثناء استعارها منذ عدة سنوات، ولديها ولدان في سن المراهقة يغليان تطلُّعًا، وتقمعهما إمكانياتها المحدودة. كانت تقيم في حي بعيد عن المنطقة التي أسكنها، وتأتي لترتيب بيتي وإعداد طعامي مرتين أو ثلاثًا أسبوعيًّا.

كنت أقيم في حي جيد وسط العاصمة، في بيت اشتريته منذ زمن بعيد، ولم أكن متزوجًا، ولم أنوِ الزواج قَطُّ بعد طلاقي منذ سبع سنوات من امرأة كانت تُحبني وأُحبها، لكنها لم تحتمل الحياة لصيقة بالهوس الكتابي والسفر المتواصل، ونوبات التشاؤم والإحباط، وجوقات النساء المغرِّدة دائمًا في أي حقل ثقافي.

كان بيتي في الواقع محصنًا جيدًا من الزيارات المفاجئة وغير المفاجئة، لا يعرفه إلا القليلون. ولم يكن يزورني، في الغالب، سوى أخي الوحيد مظفر الذي يعمل منسقًا للإغاثة، في منظمة طوعية، ويعيش في إحدى مدن الأقاليم البعيدة غرب البلاد، ولا يأتي إلا مرتين في العام، ليقضي وقته؛ ليس معي ولكن متسكعًا

برفقة أصدقاء له، في العاصمة التي لا نحفل في العادة ببريقها كما يحفل به سكان الأقاليم. وفي أحيان قليلة، كانت تزورني ملكة الدار، الداية المُسنة المتقاعدة، وأمي الرُّوحية كما أسميها، وكانت صديقة لأمي، وساعدتني كثيرًا في بداياتي. لكني كنت ألتقي بأصدقاء وقرَّاء في مقاهٍ متعددة، وبشكل شبه مستمر. وقد أتاحت لي تلك العزلة البيتية القاسية أن أنظم مكتبتي كما يحلو لي؛ جعلتها في الصالة الرئيسية للبيت، وأنشأت فرعين لها في غرفتين متجاورتين، بينما بقيت غرفة نومي الرئيسية خالية من كل ما له علاقة بالقراءة والكتابة، لا أحمل إليها حين أدخلها إلا نعاسي أو أرقي فقط.

وبالرغم من أنني استقلت من عملي مدرسًا للرياضيات في المدارس المتوسطة منذ زمن طويل، ولم أمارس نشاطًا وظيفيًّا مقيِّدًا بعد ذلك، إلا أنني كنت أحيا بطريقة أو بأخرى. صحيح أن أثاث بيتي كان متواضعًا للغاية، لكني كنت أحترمه، وأُحب تواضعه. ومع أنني لا أملك عربة حديثة كالتي يملكها السماسرة والطفيليون، لكن عربتي القديمة المتوعكة في أغلب الأيام، من ماركة «كورولا» اليابانية، كانت تؤدي واجبها جيدًا في تنقلاتي المحدودة.

في الصباح التالي وأنا منغمسٌ في توابل الكتابة الشرقية، التي عُدت بها، ومنشغلٌ في محاولات جرِّها إلى الورق لكتابة نص مغاير كما أعتقد، رن هاتفي المحمول. كانت مكالمة من نجمة، الفتاة المتعجرفة جدًّا، التي أعرفها منذ عامين، وأتذمر من عجرفتها في أحيان كثيرة. كانت تتعالى حتى على تنفُّسها، فلا تستخدمه إلا

بمقدار. تتعالى على الوطن وسكانه، ومقتنعة تمامًا أن النجوم البعيدة في السماء هي التي سُميت على اسمها، وليس العكس.

كانت ثيابها تقليدية، لا تتبع تفصيلات الحداثة، لأنها لا تحب الانبهار بموضات هذا العصر، ولا أي عصر آخر. عطورها خليط من أنواع مختلفة من العطور المحلية والأجنبية، حتى لا تحس بأسر عطر واحد كما تقول. ونظرتها للرجال يمكن تلخيصها في جملة واحدة فقط: نظرة ليست على ما يُرام.

كانت بداية تعرُّفي إليها حين أسمعتني ذات يوم، في أحد المقاهي المنعزلة، قصة لها عنوانها: «عتود(*) الجيران»، فكرتها خيالية مدهشة عن عتود يملكه أحد جيران الراوية، كان يتنبأ بأحوال الطقس، وتقلُّب الأسعار، والمرض والموت، ويركض في البيت مزمجرًا بشدة، فيفهم صاحبه أن ثمة انقلابًا عسكريًّا، أو زلزالًا مدمرًا، أو كارثة أخرى مشابهة ستحدث في ذلك اليوم. قصة فيها خيال خصب، لكنها للأسف كُتبت بلا أدوات.

أخبرت الفتاة برأيي صراحة، وطلبت منها أن تُعيد كتابتها بعد أن تقرأ لآخرين، وتكتسب ولو قليلًا من الأدوات، فلم يعجبها ذلك. خاصمتني، وانقطعت عن التواصل معي عدة أشهر، لكنها عادت مرَّة أخرى حين علقت في ورطة وأرادتني أن أشارك فيها، ليس في حلها لأنها ستحلها بنفسها، وفي الوقت المناسب كما قالت، ولكن لأحولها إلى رواية.

في تلك الأيام كانت قد انتقلت مع عائلتها إلى أحد الأحياء القديمة التي يسكنها متوسطو الدخل عادة، بعد أن تقاعد والدها

(*) العتود هو الجدي الصغير.

عن العمل الحكومي في مصلحة الضرائب، وتقلَّصت موارده كثيرًا، وهناك شاهدها كاتب عرضحالات شاب، يعمل أمام المحكمة الشرعية، ويقيم في ذات الحي، وتعلق بها بجنون.

في البداية كان تعلُّقه مجرد نظرات لاهثة، متسارعة، يسكبها على وجهها وجسدها المنسق كلما عثر عليها في الطريق مصادفة، ثم تحوَّل إلى التعليق بعبارات غير منمقة جيدًا، تخرج من حلقه متقطعة، حين يجدها تنتظر باصًّا أو عربة أجرة في محطة المواصلات العامة للحي، وأخيرًا رسائل كثيفة، وغزيرة الجُمل، تجدها في كل خطوة تخطوها في طرق الحي المغبرة، أو مكان عملها، حيث تعمل في شركة للدعاية والإعلان، أو مُلقاة من أعلى سور بيتها، أو يأتي بها أحد إخوتها الصغار حين يعود من اللعب في الشارع.

أخبرتني نجمة بتعاليها الفذ وهي تضحك: إنها أحبت تلك الورطة بشدة، أرادتها أن تستعر، وتستمر أطول وقت ممكن، لتصبح مشروعًا أدبيًّا رائعًا في المستقبل. اخترعت لكاتب العرضحالات المسكين دروبًا من الوحل، لتجعله غارقًا فيها حتى شعره، زوَّدته بعدة ابتسامات ملونة رسمتها على الشفتين بعناية، زوَّدته بملامح وجه يمكن تفسيرها بسهولة بأنها ملامح فتاة راضية ومنبهرة، ألقت أمامه مرَّة ورقة بيضاء فيها علامة استفهام فقط، وارتدت في أحد الأيام فستانًا أحمر صارخًا، ورشت جسدها بعطر الياسمين القوي لأن حامد عباس، الذي يُلقب بـ «حامد طلمبة» وسط أهل الحي، كتب لها ذات يوم أنها وردة حمراء تضخ العبير بلا توقف.

كانت ورطتها، حين التقيتها في ذلك اليوم، قد بلغت الذروة فيما يبدو، والعاشق طلمبة يخبرها في آخر عشرين رسالة وصلتها بطرق مختلفة، أنه يُجهز بيتًا من الألفة سيضمهما معًا، وسوف يعرشه بسقف من الحنان، ويفرشه بوسائد الحب الطرية التي لن تتمزق.

- ها، أليست رواية رائعة أستاذي؟ أليست فكرة جديرة بكتابتها؟

في الحقيقة لم تكن فكرة رائعة قَطُّ، ولا مشروع رواية يمكن أن تحتضنها الكتابة الحديثة على الإطلاق. كانت قصص الحب من طرف واحد، أو حتى طرفين أو مئة طرف، قد استُهلكت بشدة في كل الآداب في العالم، ولم تعد تجتذب القرَّاء الناضجين كما أعتقد. إضافة إلى أنني وبرغم عدم معرفتي بكاتب العرضحالات المسكين ذلك، ولا أتوقع أن أعرفه يومًا، تعاطفت معه بشدة، وتمنيت حقيقةً لو انتزع قلبه من وحل غير ضروري، وانتهت الرواية الواقعية عند هذا الحد. إضافةً إلى أنني حتى لو اقتنعت بالقصة، لم أكن سأكتبها، ذلك ببساطة أنني لا أكتب تجارب لا تخصني على الإطلاق، ولم يحدث أن كتبت تجربة عاشها أحد ما وسمعتها. كان لي قميص حكاياتي الفضفاض الذي لم يضق على جسد كتابتي قَطُّ. لي خيالي وتذوقي وعطوري وتوابلي، وطرقي الممهدة والوعرة التي أسلكها راكبًا ظهر الكتابة.

ذلك اليوم، لم أضحك، وكنت أود أن أضحك حتى يقتلني الضحك. قلت لفتاة العجرفة السادية محاولًا ألَّا أُغضبها:

- ولماذا لا تكتبينها أنتِ؟ ألستِ كاتبة؟

ردت بهدوء، ويدها اليمنى تخبط على صدرها برفق:

- يمكنني كتابتها بالطبع، لكنها لن تكون واسعة الانتشار وسط القرَّاء، وهو الأمر الذي سيقيض لها عندما يكتبها روائي معروف. أريدك أن تكتبها ودع لي مهمة الاستمتاع بقراءتها والترويج لها.

- لا.

قلت بلا وعي، وأحس بأن جهاز الكمبيوتر، الذي أكتب عليه نصوصي، هو الذي قالها:

- لا. لا أكتب مثل هذه القصص.

بدت لي نجمة في ذلك اليوم، وقد تلوَّنت بصيغ عدة، أبرزها صيغة الغضب، وصيغة الاستياء، وصيغة التوتر، أنها كانت ستكون فاتنة بالفعل، ويمكن أن تشد مجانين عديدين بجانب طلمبة، فقط لو عُدِّل قلبها قليلًا ليصبح أقرب إلى قلوب البشر العاديين، ولو غرست بداخلها مشاعر، ليست سامية كثيرًا، ولكنها مجرد مشاعر عادية.

راقبت حركة يديها، وكانت حركة منهزم يقاوم جاهدًا ليظل قريبًا من الانتصار. راقبت عينيها قليلًا واكتشفت أنهما ليستا في صفاء العيون المعتاد، كأنهما كسيتا بعدستين لاصقتين، لتحجبا أسرارًا معتمة، لا ينبغي لها أن تُضاء. لم تتحرك من مكانها، إلا لتعدِّل جلستها في المكان أكثر، وجاهدت كثيرًا حتى خرجت من فمها بوادر ابتسامة.

قالت بنعومة لم أتوقعها:

- ستكتبها من أجلي، أليس كذلك؟ كل الكُتاب يقدمون هدايا لفتياتهم المعجبات، وهذه هديتي منك.

تذكرت أنها قدَّمت لي قصتها «عتود الجيران»، في ركن اختارته في مقهى ضاج، لا أرتاده كثيرًا، ولا يرتاده أحد من أصدقائي، وتكفَّلت بثمن قهوتي وسجائري في ذلك اليوم، واستمعت إلى رأيي السلبي في قصتها، وانصرفت غاضبة، لتعود بهذه الورطة التي تخصها ولا تخصني.

لقد نقَّبت كثيرًا في لقائي الأول بها، نقَّبت أكثر من اللازم، ولم أجد أي شبهة إعجاب تجعلني أُهديها نصًّا لا أستطيع كتابته. وأجزم الآن أنها حتى لم تقرأ لي كتابًا من قبل، لتفهم من طريقتي في الكتابة أنني لو كتبت ورطتها هذه حقيقةً، فلن أسمو بها سنتيمترًا واحدًا، وسأجعلها أسوأ بطلة لرواية يكتبها أحد، بينما عاشقها، كاتب العرضحالات طلمبة، قد أحوِّله إلى عاشق مجنون لن ينهزم بسهولة، وسيُسكنها بيتًا معروشًا بالأفاعي، ومفروشًا بالخناجر والسكاكين، ويقتلها مرَّات ومرَّات، ليعيش جذوة الحب المشتعلة إلى الأبد.

أحسست بأنني مستاء منها، من إصرارها على اختراع ضحية، ومنحازٌ إلى عاشقها بشدة، كما انحزت من قبل لشخوص عديدين اعتبرتهم ضحايا لحياة غير عادلة صيَّرتهم كذلك. وأذكر في رواية لي اسمها «مجريات الأمور»، أنني أنقذت بطلها سفيان، موظف البنك المختلس، من السجن لسنوات طويلة، في آخر صفحتين، وكان سيدخله حتمًا، ذلك لأنني اعتبرته من ضحايا سلسلة فساد طويلة، كان هو مجرد حلقة ضيقة فيها، بينما هناك حلقات أوسع كانت تراقب مأساته وتضحك.

وفي رواية «السلحفاة»، التي صدرت منذ خمسة أعوام،

راقبت سلمى، ضابط الأمن المنحرفة، القاسية، مبتكرة التعذيب الجنسي، وهي تحتضر في الصفحة الأخيرة، ثم اخترعت لها دواء فعالًا سيُطيل حياتها بعض الوقت، لأن هناك عددًا غير قليل من الاعتذارات كان ينبغي أن تُقدمها لضحاياها قبل أن تموت.

قلت للفتاة نجمة:

- لا يا عزيزتي، لست مدينًا لأحد بشيء، أنا كاتب حر وأكتب ما يروقني وما أستطيع كتابته فقط، وتجارب الآخرين لا تروقني أو تشغلني.

أظنني كنت جلفًا وأنا أقول ذلك، لأنني أحسست بجفافٍ وطعم مُر في حلقي، ورأيت الفتاة المتعجرفة تنهزم هذه المرَّة بجدارة بعيدًا عن أي محاولات للاقتراب من النصر.

التقطتْ حقيبة يدها الرمادية الكلاسيكية عن الطاولة، فتحتها بعنف، أخرجت شريطًا للأسبرين، أفرغت منه قرصين، ابتلعتهما بلا ماء، ثم نهضت، وانزاحت من وجهي.

كانت خطواتها سريعة وهي تبتعد، أسرع كثيرًا من الخطوات العادية لفتاة، وكان ثمة نادل في عمر المراهقة يبتسم بأسنان تآكلت من فعل الحلوى، وأظن أن ثمة سيناريو مغايرًا، عن الحب وهجر الحبيب، تلاعب في ذهنه تلك اللحظة. وحين عُدت إلى بيتي في ذلك اليوم، جلست أفكر بعمق في كاتب العرضحالات حامد عباس، أفكر في لقبه «طلمبة»، وكيف اكتسبه، وكان تفكيرًا بعيدًا جدًّا عن ورطة نجمة، تفكيرًا قد يُدخل ذلك العاشق المهووس نصًّا آخر، لا يقترب من واقعه.

نجمة لم تعد لملاقاتي بعد ذلك لزمن طويل، كما حدث في

المرَّة الأولى حين انتقدت قصتها «عتود الجيران»، وفوجئت منذ عام تقريبًا بطلب للصداقة، أرسلته إليَّ على موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك». استجبت لطلبها بسرعة، ولم أقاوم رغبتي في تصفح حائطها، لأعرف أي نوع من المشاركات تكتب، وإن كانت ما زالت تمارس كتابة القصة، وتعدَّلت أدواتها أم لا.

عثرت على قصة «عتود الجيران» ممددة على الصفحة، بكل عيوبها اللغوية والتقنية، ومئات التعليقات والإعجابات تحيط بها مرتقية بهفواتها.

عثرت على قصة أخرى لها اسمها «طبق التجسس الخاص بجدتي»، وكانت فكرتها جيدة، لكن كتابتها جاءت ماسخة، وأفضل ما فيها عنوانها، وأيضًا كتابات أخرى سريعة لا تُشبه شخصيتها، مثل: «قلبي تبرعم في خاصرتك، فاسقه بمشاعرك لينمو محلقًا.. أرجوك»، أو «لو ماتت رغبتي في لقائك لا تنسَ زيارة قبرها».

وضعت علامة إعجاب على صورة لها، تُمثِّلها بملابس قاتمة للغاية، وبلا أي إضافات، تستند على جدار طيني يبدو في إحدى القرى أو المزارع، بالرغم من أنني لم أُعجب بالصورة حقيقةً، وكان ذلك الإعجاب هو الممر الذي انفتح في حائط خصامنا المغلق، حيث عادت لملاقاتي في الواقع مرَّة أخرى.

وكنت كلما التقيتها أهم أن أسألها عن طلمبة كاتب العرضحالات المسكين: هل ما زال يعشقها إلى الآن، ويكتب لها وقائع روايتها الخالدة؟ لكني لم أفعل؛ خوفًا من التورط من

جديد. وهي من جانبها لم تخبرني بما جرى قَطُّ، ولم تُشر في صفحتها إلى تلك الورطة التي ذكرت ذات يوم أنها تبذل مجهودًا كبيرًا لتمددها أطول وقت ممكن في حياتها.

رددت على هاتف نجمة بعد عدة رنات مُلحة.

كان صوتها منخفضًا جدًّا، كأنها تتعالى على خط الاتصال ولا تود أن تطلق صوتها بكامل طاقته. اعتذرت عن عدم حضورها تدشين رواية «أمنيات الجوع»، بسبب مرض طارئ أصاب جدتها القوية التي تجاوزت التسعين، ودعتني بإلحاح لحضور أمسية تنويرية، تنظمها غدًا مساء في نادي «الرفاق الاجتماعي»، وتقوم بتقديمها. إنها محاضرة خاصة بما يُسمى «الطب الانعكاسي»، الذي كثر الحديث عنه في هذه الأيام، ومن حق الناس أن يفهموا من الخبراء شخصيًّا حقيقته، ومدى صلاحيته لتخفيف الآلام، وعلاج الأمراض المزمنة.

برغم محاولاتي الجادة في اكتساب المعارف، ورغم إنفاقي وقتًا بلا حصر في مطالعة الكتب بكل أنواعها، لم أكن أعرف عن الطب الانعكاسي سوى اسمه، ولم يخطر ببالي قَطُّ أنني يمكن أن أتعرف إليه عن قرب.

في الواقع لم يكن ذلك الموضوع يهمني كثيرًا، ولا كان لي طموح أن أعالَج إن مرضت، بطب مختلف عن الطب المعروف. لكن ثمة دعوة وُجِّهت بإلحاح، ومن فتاة انقهرت أمامي كثيرًا، وعليَّ أن أذهب إرضاءً لها.

٤

وصلت إلى نادي «الرفاق الاجتماعي»، الذي لم يكن يبعد كثيرًا عن بيتي، حيث تقام محاضرة الطب الانعكاسي، متأخرًا قليلًا، لكن المحاضرة لم تكن قد بدأت بعد لحسن الحظ؛ فقد داهمتني فجأة، وأنا أرتدي ثياب الخروج، وأستعد لمغادرة البيت، فقرات كتابية اعتبرتها مهمة للغاية. كتبت اسم رواية محتملة، كتبت جزءًا من فكرتها، وعدة حلقات متقطعة منها، ربما تتصل بعد ذلك، وربما تظل هكذا ممزقة. أشرت إلى إمكانية أن تضم الرواية شخصيات من كوالالمبور مثل «الماستر تولي»، أو أنانيا فاروق، وشخصيات محلية أخرى، لن أحتاج إلى الركض خلفها، لأنها مخزَّنة في الذاكرة، وتمنيت لو لم أكن متورطًا في دعوة نجمة تلك، حتى أواصل الكتابة طوال الليل، وبداخلي يقين غريب، أنها ستتدفق معي ولن تنقطع حتى أتعب.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف مساء، حين عثرت على موقف قريب من المكان، وضعت فيه عربتي، ودخلت القاعة.

لم يكن المكان مزدحمًا جدًّا كما تصورت. شاهدت عدة

أشخاص أعرفهم، يجلسون على المقاعد الأمامية وأعينهم معلَّقة على المنصة. كان فيهم النقابي العجوز عبد الرحمن الذي كان يرأس نقابة العمال فيما مضى، ويطلق على نفسه «المهاتما»، ولم يكن حافي القدمين، أو يلتف بإزار من القماش الرخيص، ويخطب في الناس في الشوارع، كما ينبغي أن يفعل ليملأ ذلك اللقب. كان يشكو من آلام ظهر مزمنة، لا بد يبحث عن حل لها في الطب الانعكاسي. أيضًا شاهدت سونيا الزويني، صاحبة محلات تصفيف الشعر الشهيرة، وكانت من أصل مغربي، وكثيرة الزواج والطلاق، ولا بد تبحث في الطب الانعكاسي عن علاج يعدل من مزاجها لتستقر مع رجل. شاهدت شوقي أو «شوشو» كما يطلق عليه، وكان مدرب سباحة مائعًا، ولم أفهم سبب وجود صبي في حوالي الرابعة عشرة، يجلس وحده على مقعد منعزل في القاعة، ونظراته معلَّقة هي الأخرى بالمنصة، إلا إذا كان يأمل أن يجد في المحاضرة طريقة مجدية لجذب الفتيات.

جلست على أول مقعد خالٍ وجدته، وكان بجانب امرأة في منتصف العُمر، ترتدي ثوبًا جذابًا أخضر اللون ومطرزًا بخيوط ذهبية، وتضع على أذنيها قرطين سميكين من الذهب. كنت أتمنى ألَّا يلاحظ وجودي أحد من المعارف أو القرَّاء، حتى أقضي الأمسية خفيفًا وأرحل لأواصل كتابتي بلا أعباء أو مضايقات، لكن المرأة لاحظت وجودي وإن كانت ملاحظة بعيدة تمامًا عني وعن نشاطي لحُسن الحظ. مالت إليَّ قليلًا، وسألت في همس:

- كأني شاهدتك من قبل، هل تُقدم النشرة الجوية في التلفزيون؟

قلت بلا تردد:

- نعم، أحيانًا.

مددت بصري إلى المنصة حيث تجلس نجمة في زي أبيض عادي شبيه بأزياء الممرضات، وبجانبها المحاضر الذي تأنق في بدلة سوداء مخططة، ورباط عنق أصفر، وخلفهما لافتة كبيرة كُتب عليها بالأزرق العريض: «الطب الانعكاسي، ما له وما عليه، محاضرة للدكتور صابر حزاز».

قدمت نجمة ضيفها بلقب «البروفيسور»، ولم يكن لقبًا مجيدًا بأي شكل من الأشكال، في بلاد تُطلقه حتى على الفرّاشين، ومستنشقي البنزين المشرَّدين، وباعة الصحف في الشوارع، وقرّاء عدادات الكهرباء في البيوت. وقد عرفت مناديًا للسيارات في موقف أحد الفنادق الكبيرة، يحمل هذا اللقب، وكانت شهادته التي أهَّلته لحمله هو أنه، ومهما كثر الزحام، لم يعجز عن إيجاد موقف لسيارة قَطُّ. ولديَّ ابن عم يعمل نجارًا في ورشة صغيرة يملكها، أنجز منذ عامين، وحدَه، أبوابًا ونوافذ لبيت يتكون من عدة طوابق لأحد التجار، وأطلق على نفسه لقب «البروفيسور»، ولم يعد ينشر لوحًا من الخشب لزبون، أو يدق مسمارًا على خزانة مفككة، إن لم يُخاطَب بذلك اللقب. حتى المشلول «استيفن رياك»، الجنوبي الذي يجلس على مقعد متحرك، أمام كنيسة العذراء القديمة في وسط المدينة، ويرسم لوحات رديئة بالطباشير، يبيعها بجنيهين للعابرين في الشوارع، اسمه «البروفيسَور استيفن رياك». والإثيوبية ضمائر، التي كانت تعمل خادمة لدى أحد معارفي، وتخترع أحيانًا وجبات للطعام غير

مألوفة تمامًا، اسمها «البروفيسور ضمائر». وفي إحدى الندوات، التي شاركت فيها برأي حول الكتابة الشبابية، قُدِّمتُ بلقب «البروفيسور»، وكان أن ألغيته في نفس اللحظة حين وضحت بأنني مجرد كاتب رواية عادي، لا أملك ما يؤهلني لمثل هذا اللقب.

غاصت نجمة في سيرة المحاضر أكثر، عددت خبراته، ونجاحاته، وأسفاره المكوكية المتعددة، وأنه قام بعلاج أحد الحكام العرب من مرض صداع الشقيقة الهمجي، بينما لم يستطع الأمريكان علاجه بكل ما يملكون من إمكانيات. عالج أفارقة مضطهدين في بلادهم من عُقد يحملونها، وشيوعيين، ما زالوا يؤمنون بـ«لينين» و«ماركس»، من عُقد إيمانهم. ومارس نشاطه لوجه الله، في بلدان لم تعرف الخبز، ولم تدخلها الكهرباء حتى الآن، وما زالت نظرياته في الطب الانعكاسي تُدرَّس في أرقى المعاهد في العالم.

كان الرجل قصيرًا جدًّا، ونحيلًا جدًّا، وتبدو أصابعه برغم قصره طويلة ورشيقة كأنها لموسيقار. وبالرغم من أن وجهه كان نظيفًا إلى حد ما من تجاعيد العمر، إلا أنه قطعًا تجاوز السبعين.

بدأ المحاضر يتحدث منذ البداية بانطلاق، وصوت مشحون كبير لا يشبه هيئته:

- الطب الانعكاسي فكرة تقوم على إثارة نقاط معينة في اليدين والقدمين بتدليكها بطريقة خاصة، ومن ثَمَّ الحصول على علاج ممتاز لمشاكل صحية كثيرة. وهو ليس علمًا جديدًا، بالرغم من أن الناس لا يعرفون عنه الكثير حتى الآن، والمرجَّح أن أصله

يعود إلى ما قبل خمسة آلاف سنة حين عرفه الصينيون، واستخدموه في مشاكلهم الصحية، وهناك رسوم أثرية عُثر عليها، عند المصريين القدماء، تُثبت أنهم عرفوه أيضًا، وكان لكل ملك من ملوكهم أطباء انعكاسيون يتولون رعايته. ولتُعطي المعالجة نتائج مرجوة، فقد قُسم الجسم إلى عشر مناطق طولية، بحيث تقع كل خمس على أحد جانبي الجسم بشكل متساوٍ على جانبي الخط الوهمي الذي يقسم الجسم طوليًّا إلى قسمين متساويين. أيضًا يجب أن تتم المعالجة على يد متخصص، ولا تكون عشوائية يمارسها الذين بلا خبرة.. لكن ماذا يحدث في أثناء تدليك تلك المناطق التي أشرنا إليها؟ في الواقع، هناك عدة نظريات في ذلك، ولكن الأرجح هو أن المعالجة الانعكاسية تؤثر على الدورة الدموية للجسم، كما أن التدليك يساعد على الاسترخاء، وبالتالي مساعدة الجسم على أداء وظائفه بطريقة أفضل. ونقوم بهذه الطريقة بعلاج أمراض متعددة مثل: القلق، والأرق، وحمى النفاس، وتهيج القولون العصبي، وآلام الظهر المزمنة، وصعوبة الحيض عند بعض النساء، والعقم، والبرود الجنسي، وسرعة القذف عند الرجال، وحتى علاج السرطان بأنواعه المختلفة، والتهابات الكبد والمفاصل، والبروستاتا و...

أحسست فجأة بالملل، وحسدت البروفيسور حزاز على تلك الحيوية الدافقة، واشتعال الذهن، وكان يتوقف أحيانًا، يتنفس بعمق ويرطب لسانه برشفة ماء من كوب ممتلئ أمامه، أو يُلقي نظرة سريعة على ورقة مطوية، أرسلها أحد الحاضرين، ومؤكد تحوي استفسارًا عن علة، أو تطالب بإيضاح ما.

كنت بحاجة أن أتحرك قليلًا، لأدخن سيجارة أحتاجها، أو أفر من المكان لأعود إلى تخطيطي الذي خططته قبل أن أخرج من هذه الورطة. لم أحس قَطُّ أنني اندمجت في تلك المحاضرة، أو استمتعت بها، ولا فكرت بأنني قد أحتاج إلى علاج انعكاسي في يوم من الأيام. كانت آلامي محدودة حتى الآن، وكنت أحبها وأعيش صديقًا لها منذ زمن طويل: توتر الكتابة، انتفاخ القولون، ارتجاع المريء، الأرق في بعض الأحيان، تقلُّب المزاج، ولا شيء آخر. وإن احتجت إلى شيء، في المستقبل، فلن يكون صابر حزاز هو الرجل الذي أقصده بكل تأكيد. قررت النهوض من مقعدي والبروفيسور يُعدد مخاطر العلاج إن قام به غير المتخصصين: تمزق أوتار العضلات، زيادة مرَّات التبول، الإفراز المكثف لمورفين الجسم مما يؤدي لشيء شبيه بالجنون. ونجمة كأنها ملَّت هي الأخرى، لأن وجهها كان خامدًا جدًّا، وعينيها شبه مغلقتين، وقد سقط غطاء شعرها الأبيض الشفاف عن رأسها، ولم تمد يدها لإعادته.

كان عدد من الحاضرين، على قِلَّتهم، قد بدأوا في التسرب بلا حرج، وامرأة شابة لا أذكر اسمها، وأشاهدها أحيانًا في الأنشطة الثقافية، تكتب على الورق بسرعة، كأنها تلميذ في درس مهم.

بدا لي أن المهاتما عبد الرحمن يتمنى لو مدده البروفيسور في تلك اللحظة، ودلك خريطة قدميه، لأنه كان يمدهما إلى الأمام، ويضمهما بلا توقف. مصففة الشعر سونيا الزويني، كان مقعدها خاليًا. الصبي المنعزل، ما زال منعزلًا في مكانه. مدرب

السباحة شوشو، يهزهز شعره الطويل منتشيًا. وجارتي متوسطة العُمر، صاحبة الثوب الأخضر المزركش، وقرطي الذهب الثقيلين، مالت إليَّ مرَّة أخرى في اللحظة التي هممت فيها بالوقوف، وهمست:

- الآن تذكَّرتك بوضوح، كنت تأتي لتُغازلني أيام المدرسة الثانوية، لقد كبرت كثيرًا، ولكني عرفتك بذاكرة المرأة. كيف حالك عزيزي؟ هل أنت متزوج؟

لم أرد عليها، وانطلقت بسرعة إلى الخارج.

وقفت في ركن شبه معتم في الصالة الخارجية لمبنى النادي، أدخن سيجارتي ببطء، وأحاور ذكرياتي الآسيوية بتوتر، متمنيًا أن تنطق بجديد أسرع لتدوينه حالما أعود إلى بيتي.

كانت الصالة، على عكس القاعة الداخلية حيث المحاضرة، محشوة بشدة بالرواد. ثمة أشخاص بمختلف الأعمار، على عدة طاولات، يلعبون الدومينو والورق في حماس، أشخاص يثرثرون بحدة عن الوضع السياسي الراهن، وانحسار عائدات الاقتصاد الوطني، ومباريات كرة القدم المحلية، ونفر قليل تحلقوا حول طاولة قديمة للعب كرة الطاولة موضوعة في الركن المقابل، ينتظرون دورهم بنفاد صبر.

كانت صالة عادية، في نادٍ عادي، لن تلفت النظر كثيرًا، ولن يلفت وجود كاتب روائي، حتى لو كان لامعًا، أنظار شاغليها بكل تأكيد، ذلك ببساطة أنهم بعيدون جدًّا عن طرق القراءة. لكن غير العادي حدث في تلك اللحظة، فقد شاهدت بغتة عاشق رنيم المضطرب يبزغ من إحدى الغرف الداخلية. كان يرتدي ذات

ملابسه البلدية القحة: الثوب والعمامة والحذاء المصنوع من جلد الماعز، يتجه نحوي بسرعة، وفي يده اليمنى نسخة من روايتي «أمنيات الجوع»، وفي اليسرى ما خلته لهلعي مدية قاتلة.

ألقيت سيجارتي على الأرض بسرعة، وأسرعت إلى باب الخروج، وأنا أحس برغبة مؤلمة في الصياح ومناداة أحد أولئك المشغولين باللعب لحمايتي إن كنت أواجه هجومًا من مهووس. عبرت في ذهني للحظة عشرات المواقف والذكريات: ما أنجزته في حياتي، وما لم أنجزه، ما كان سعيدًا حقًّا، وما كان مؤلمًا. وفكرت في لعنة الكتابة، وقلت لنفسي إنها أكبر لعنة يُصاب بها مدرس للرياضيات كان يمكن أن يكون الآن قد أصبح وزيرًا للتعليم، أو أقلها مستشارًا مرموقًا للشؤون التعليمية.

لقد كانت كتابتي في مجملها خليطًا من الواقع والخيال، شيئًا أستوحيه من محيطي، وشيئًا أخترعه، وحتى ما أستوحيه لا أكتبه كما هو، ولكن أعدِّله بحيث لا يجرح أحدًا، ولا يعطي الواقع أي فرصة ليدعي امتلاكه في يوم من الأيام. وقد دخل إلى تلك الكتابة عبر هذا الدرب أصدقاء، وأهل، وجيران، ومعارف، وناشطون في الدنيا، وخامدون، ولم يقل أحد من قبل إن تلك الشخصية هي أنا، ولا ردَّد صاحب موقف استلفته بأن هذا موقفه، وسيقتلني من أجل كتابتي له. حتى المدن لا أكتب أسماءها من أجل أن تأتي مدينة ذات يوم، وتدعي أنني رسمتها، وشارع بيتي الذي أسكنه وصفت فورانه في فقرات كثيرة، وبالرغم من ذلك، لم يحدث أن عاتبني أحد سكانه ذات يوم.

حين وقف الرجل أمامي، كنت، لدهشتي الشديدة، قد قرأت

في ذهني «أمنيات الجوع» كلها. مررت بشخوصها، وحواريها، وأزقتها، وشوارعها المسفلتة والوعرة. مررت بتنفسها وغياب تنفسها، بما اعتبرته مشرقًا فيها، وما اعتبرته رديئًا بلا طعم. وخرجت منها بأن لا شيء داخلها يُشبه هذا الرجل، ليلاحقني بها هكذا.

الرواية في يده اليمنى، وما خلته مدية قاتلة كان وهمًا، لأن يده اليسرى كانت خالية.

استدعيت استرخاء مزعزعًا، خفت أن يهرب مني، وسألت الرجل:

- ماذا تريد مني؟ لماذا تلاحقني؟

ابتسم، أو لعله ضحك، لم أستطع التمييز، إن كانت ضحكة أو ابتسامة. كل ما استطعت قراءته هو انفراج فم واسع بعض الشيء، تواجهني فيه أسنان لم يترك فيها التبغ سنًّا واحدة يمكن اعتبارها سنًّا. وكأنني سمعت صوتًا يمكن أن يكون قرقرة حلق يتهيأ لإطلاق ضحكة.

قال:

- أحضرت نسختي من «أمنيات الجوع» لتوقعها لي. لقد أخبرتك قبل أن تسافر، بأنني سأحضرها لك في أحد الأيام. هل تذكرني؟ هل تذكر النسخة التي وقَّعتها لحبيبتي رنيم؟

نعم. حبيبته رنيم، مَن ينسى شيئًا كهذا؟

لم أسأله عن تلك الكيفية التي عرف بها أنني عُدت من سفري، وأنني سأكون متورطًا هنا في هذه المحاضرة. بدا لي أنه يلاحقني بإصرار، أو يتنبأ بتحركاتي، لا أدري بالتحديد.

أمسكت بالنسخة الممدودة إليَّ وقد بدأ استقراري المزعزع يقاوم ليفر. بحثت في جيبي عن قلم أُوقِّع به، ولم أعثر على واحد، وشاهدت الرجل ينقب في جِيب ثوبه ويُخرج قلمًا قديمًا أزرق اللون بلا غطاء.

- خذ.

قال بصوت جارح، وهو يناولني القلم.

- اسمك سيدي لأكتبه. لم تقله في المرَّة السابقة.

ردد في ثبات قاتل، وبلا أي اضطراب:

- نيشان حمزة نيشان.

- مَن؟

أظنني اضطربت بشدة، لا لم أضطرب إلا لحظة فقط. تماسكت بعدها كأفضل ما يكون التماسك. كان ثمة مجنون يستفزني لأضطرب وخيَّبت ظنه.

لا أحد يحمل اسمًا نادرًا مثل هذا أبدًا، وبتلك التركيبة التي جاهدت أن أصنعها وأُبعدها عن كل ارتباك محتمل. لا أحد اسمه «نيشان حمزة نيشان»، إلا ذلك المهووس الذي يسكن «أمنيات الجوع»، وحددت مصيره بلا خيارات أخرى ولا عاطفة حين أصابه سرطان الغدد ولم يكن هناك أمل في الشفاء. لو أن الرجل قال إن اسمه محمد حمزة، أو حمزة أحمد، أو أي اسم مألوف يدور في فلك الأسماء المتداولة في الدنيا لصدقته. ولو قال نيشان عبد المطلب مثلًا، أو عبد الغني نيشان، لصدقته أيضًا، وحتى لو قال نيشان جورج، أو مارك نيشان، لربما أصدقه. لكن الاسم الثلاثي كاملًا، كما ورد في نصي، شيء بعيد تمامًا عن التصديق.

أمسكت بالكتاب بصلف ليس من طبعي، اصطنعته تلك اللحظة، وأصطنعه أحيانًا حين ترجُّني لحظة ضعف عابرة ليحس من يواجهني أنه يواجه جبلًا. فتحت الصفحة الأولى للكتاب، كتبت عليها وبذات القلم الذي أعطاني إياه الرجل:

إلى العزيز نيشان حمزة نيشان، ذكرى لقاء عميق ومؤثر، في إحدى المصادفات.

محبتي

وقَّعت اسمي كما أُوقِّعه دائمًا، وكتبت التاريخ ومكان التوقيع واضحًا، ومددت النسخة والقلم للرجل، وأنا أبحث عن سجائري لأُدخن واحدة جديدة بدلًا عن تلك التي ألقيتها حين ظهر. لكن القصة لم تنتهِ بعد مع الأسف، فقط ازدادت تشويقًا. الرواية المباغتة ستبدأ بداية لم أكن أتوقعها أو أضع لها حسابًا.

استلم عاشق رنيم المضطرب، أو نيشان حمزة نيشان كما سمَّى نفسه، نسخته الموقَّعة وقلمه القديم، وأخرج من جيبه بغتة بطاقة شخصية يرجع تاريخها إلى أكثر من ست سنوات، مرَّرها أمام عينيَّ المفتوحتين وقتًا كافيًا، لأقرأ كل الأختام والتوقيعات، وحتى بقعة الدهن العالقة بأحد الأطراف، والشقوق الدقيقة التي مرت على جانب من الصورة، وكان يرتدي فيها قميصًا زيتيًّا مفتوح الأزرار، ويبدو بشعره الأسود الكثيف، ولحيته الخفيفة المرتَّبة، أكثر ملاءمة ليكون عاشقًا لواحدة اسمها رنيم.

- نيشان حمزة نيشان.

الآن كان لزامًا عليَّ أن أحترم لحظة ضعفي، أن أستسلم

لحبال فخ لم أسعَ لنسجها، ولا سعى ذلك الذي يقف أمامي إلى نسجها هو الآخر بكل تأكيد.

أنا كتبت اسمه كاملًا في نص من نصوصي، هذا أكيد، ولم أكن أدري أن أحدًا في الدنيا كلها يملك اسمًا بهذا الشكل، وحتى قبل دقيقتين فقط، كنت أتصعلك عليه، وأكتب الاسم على صفحة الإهداء وداخلي يتراقص بيقين عميق أنني أمسكت بقارئ نادر، لم يكتفِ بالقراءة فقط، لكنه اقتنص اسم البطل، وتسمَّى به. وأظنني بعد هذه المفاجأة، حتى لو قضيت عمري كله أتقصَّى عن كيفية وصول ذلك الاسم إليَّ، لن أتوصل إلى نتيجة.

كنت أعرف الشيء القليل عن نظريات التخاطر والإيحاء، كيف أن شخصًا على بُعد عشرات آلاف الكيلومترات منك، يمكنه أن يرسل رسالة إليك، وتستلمها. شخص في مأزق يستغيث، حبيبة متيَّمة تسعى للوصال، جنود في حرب مجحفة علقوا في فخ، سجين مضطهد يسعى لإنهاء اضطهاده، هكذا.

لكن لماذا يرسل إليَّ نيشان حمزة نيشان اسمه، وكيف تلقيت هذا الاسم، ولا أزعم أنني أملك موهبة تلقي الرسائل التخاطرية، إلا إن كانت لديَّ ولم أكتشفها بعد؟! وفي النهاية، هل هذه النظريات حقيقة فعلًا، أم مجرد نظريات بلا حجج قوية، تتمدد في أذهان الناس؟

لقد ذكرت أنني كتبت تلك القصة بسرعة كبيرة لم أعتد عليها في كل الأعمال التي سبقتها، وكنت مدفوعًا بإيحاءات مكثفة، ودروب تنفتح دربًا إثر آخر. لم أواجه أي عقبة أستطيع تسميتها عقبة، ولا كانت الأحداث سوى تسلسل مرن، يبني نفسه بنفسه.

وفي ركن منعزل، اعتدت عليه في أحد الفنادق المتوسطة، وكتبت فيه معظم أعمالي، كانت ثمة نادلة إثيوبية رائعة اسمها «حسنات» تأتيني بالقهوة السادة كما أشربها، اضطرت في كثير من الأحيان إلى تنبيهي بأن قهوتي قد تجمَّدت، ذلك أنني كنت حتى لا ألاحظ وجود قهوة على طاولتي، أو نادلة إثيوبية فاتنة تأتي بها. وأظنني لن أفاجأ الآن لو كان عاشق رنيم هو الذي أملاها عليَّ وأنا غافل.

لقد عبَّأت «أمنيات الجوع» بتوافه كثيرة وإشراقات أيضًا، بمواقف قوة وضعف، بمصائر ربما كانت قاسية وغير منصفة، أو عادية تمامًا. فقط كل ما أتمناه الآن، أن تكون القصة مختلفة، ولا تكون قصته.

- ماذا تقول الآن؟

كان يسألني، وقد بدأت يداه ترتعشان، وحباله الصوتية كأنها تتأرجح وهي تنطق.

- مزيد من الإيضاح لو سمحت.

كنت أرد، أو أحاول الرد، لا أدري، وأسمع صوتي بعيدًا جدًّا.

- سأخبرك بكل شيء.

قال وكان وجهه مشوشًا، أراه ولا أراه جيدًا، سيجارته في يده تحوَّلت إلى عقب ضامر وما زال ممسكًا بها.

تلك اللحظة، انتهت محاضرة الطب الانعكاسي كما يبدو، وخرجت نجمة، وبدت وكأنها قد عادت إلى نفسها بعد سجن ممل طويل، وبجانبها البروفيسور حزاز أكثر حيوية، يمشي

بنشوة، ويوزع بطاقاته الترويجية للجميع، وحتى لأولئك المنشغلين الذين كانوا ما زالوا يلعبون «الدومينو»، أو يتحمسون في مباريات كرة المضرب.

اقتربت نجمة من وقفتنا، حيَّتني بقوة، وهي تلامس كتفي اليسرى، ومدت يدها لنيشان حمزة بلا حماس، وكان قد أخبرني، بإشارة سريعة، أنه ينتظرني خارجًا، حيَّاني البروفيسور بسرعة وانصرف، وثرثرت نجمة معي عدة دقائق، ولم أستوعب ثرثرتها جيدًا، وطلبت مني وهي تنصرف بأن أُعلق على ما سوف تكتبه اليوم في صفحتها على «فيس بوك»:

- تعليقك مهم أستاذي.

لم أحس بها فاتنة قَطُّ في تلك اللحظة، ولا أحسست بالرغبة في قراءة موضوع عن محاضرة مللت منها سريعًا. ما أريد معرفته هو حل ذلك اللغز الذي تمدد أمامي فجأة، وليته كان قد تمدد أيام أن كنت أكتب «أمنيات الجوع»، فلم أكن قطعًا سأنشر رواية بهذا الاسم.

٥

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلًا بقليل، وأنا متوتر للغاية، أقود عربتي المتوعكة في شوارع العاصمة شبه الخالية، ولا أعرف إلى أين أذهب.

كان راديو العربة مفتوحًا على الإذاعة الوطنية، وثمة سياسي من الحزب الحاكم يتحدث عن ثروة عظيمة موعود بها الوطن بعد أن اكتُشف الذهب في أقاليم متعددة، وعن طفرات كبرى في الاقتصاد الوطني ستحدث قريبًا وتشمل كل المواطنين، وأنا بالكاد أسمعه، عن يميني يجلس نيشان حمزة صامتًا، يطالع الطريق بلا تركيز، ويعود بين لحظة وأخرى إلى صفحة بعينها مثنية في رواية «أمنيات الجوع» يطالعها قليلًا، ثم يُغلق الكتاب.

لقد أراد محادثتي للضرورة، وكنت بحاجة لتلك المحادثة أكثر منه. أراد إخباري بسر يحمله، وتمنيت لو أن سره هذا يُذاع الآن من الراديو، بدلًا من ذلك الحديث الذي لا يعدو كونه ثرثرة لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر.

لم أكن أستطيع أن أجلس معه في أي مقهى من تلك التي أرتادها أو لا أرتادها، لأن المقاهي أغلقت أبوابها في ذلك

الوقت شبه المتأخر، ولا أستطيع الذهاب به إلى بيتي، وأخاف أن أذهب بمهووس كما صنَّفته، ربما يغتاظ مني ويقتلني في لحظة هياج، وأموت بلا ضرورة لذلك. وحتى لو لم يكن مهووسًا ولم يؤذني، فلا أريد أن يعرف أحد طريق بيتي الذي ذكرت أنني حصَّنته جيدًا من أجل العزلة. ولا أستطيع الدوران به في الطرق هكذا طالبًا منه أن يحكي، لأن ذهني لا يستوعب وأنا أقود عربة، إضافة إلى اضطرابي الشخصي، وأحتاج قطعًا إلى جلسة منظمة، ومحاولات استرخاء عدة حتى أهدأ.

انتبهت إلى أن السياسي المستهتر انتهت مقابلته في الراديو، والآن يبثون أغنية الطير المهاجر، للعملاق وردي، ولن أحس بروعتها في هذه اللحظة.

انتبهت إلى أن رفيقي في العربة أدخل يده في جيبه فجأة ليبحث عن شيء وارتعبت، ووصل ارتجاع المريء، الذي تكوَّن بسرعة في حلقي، إلى تنفُّسي وكاد يوقفه. لكنه أخرج يده أخيرًا وفيها القلم القديم الذي بلا غطاء، وكان يكتب به شيئًا أشبه بالملاحظات أسفل الصفحة المثنية للكتاب.

قبل سفري بأسبوعين، كان أخي مظفر موجودًا، وكان وجوده بلا أهمية كبرى كما ذكرت، لأن برامجه لا تشبه برامجي بأي شكل من الأشكال، ولن يعود قبل ستة أشهر أخرى، والآن أتمنى لو عاد في هذه الليلة بالذات، حتى أدخله برنامج ورطتي قسرًا، وأرغمه على حمايتي، أو إبداء رأي معقول. بالطبع كان يمكنني أن أخطر أحد أصدقائي المقرَّبين، وخطرت لي الفكرة بالفعل، وألغيتها حتى أفهم أولًا، في أي نوع من الورطات أنا

عالق حقيقة؟ فربما لا تكون هناك ورطة على الإطلاق، وإنما دعابة مرة، من تلك الدعابات التي نصادفها من حين إلى آخر، ولعلي صادفت ما هو أقسى منها كثيرًا، لكني لا أذكر الآن.

فجأة تحدث نيشان وعيناه ليستا في اتجاهي، وكان صوته غريبًا، صوت رجل يتحدث من خلف رعشة حمى:

- إلى أين نذهب يا أستاذ؟ أراك تقود منذ أكثر من ساعة، بلا نية في الوقوف!

لم تكن لديَّ إجابة حاضرة لتساؤله، وكنت حقيقة أقود بلا هدف ولا محاولة للعثور على هدف. تلفَّت حولي أستكشف موقعي، وكنت لدهشتي، في حي السكة الحديد، قريبًا من محطة القطارات الرئيسية، حيث تقيم أمي الرُّوحية ملكة الدار. في الواقع كنت أمام بيتها تقريبًا، ولا أعرف كيف وصلت إلى هنا، كأن ثمة حبلًا غير مرئي جرني، لكني أحسست بارتياح ما، وبيت أمي الرُّوحية هو بيتي الثاني، أزوره كلما احتجت إلى وجه أم، ورائحة أم، وطعام تعده أم، ولن يكون غريبًا إن دخلته الآن ومعي ضيف، لأنني فعلت ذلك مرَّات كثيرة، آخرها منذ شهرين حين اصطحبت معي حكَّاءً قديمًا اسمه إسماعيل، أردت منه بعض الإيضاحات عن تاريخ العاصمة البعيد، ورفض إعطاءها إلا بعد وجبة من طبيخ شعبي قديم، ولم أكن سأجد مثل تلك الوجبة شبه المنقرضة إلا في بيت أمي ملكة الدار.

كان بيت ملكة الدار رحبًا، ولا أعني رحابة المكان الجغرافي، ولكن رحابة الصدر، حيث أجده في كل وقت يؤوي كثيرًا من الغرباء أو أهل قريتها الأصلية في شمال البلاد، الذين

تقطَّعت بهم السُّبل في العاصمة. وقد أفردت في جانب من حوشه الواسع نسبيًّا، غرفة كبيرة بعض الشيء، تضم أسرَّة وألحفة، وبرادًا صغيرًا للماء، ويمكن أن تضم الطعام أيضًا، في أي وقت.

كان الباب الرئيسي في مواجهتي تمامًا، وقد جُدد لونه الأخضر الزيتي، وجُددت كتابة الإعلان عن حج صاحب البيت: حجًّا مبرورًا وذنبًا مغفورًا وعودًا حميدًا، وكانت ملكة الدار قد أدت تلك الفريضة مرَّة برفقة زوجها، ومرَّة أخرى بعد وفاته من ضمن فوج رسمي. كان دخلها من عملها المسائي، الذي لا تزال تمارسه، ممرضة لدى أحد أطباء النساء والتوليد المعروفين، حتى بعد تقاعدها عن العمل في الحكومة، كفيلًا بإنعاش بيتها، وإنعاش حياتها كلها.

طرقت الباب طرقًا خفيفًا، ففتحت بنفسها، ولاحظت أنها تعرج قليلًا، وأعرف أن ثمة خللًا في مفاصل ركبتيها، بفعل السمنة، وتقدُّم السن، قد بدأت أعراضه تتطور. وربما تحتاج لمفصلين صناعيين في وقت قريب كما أخبرها طبيب للعظام استشارته مؤخرًا.

كان البيت خاليًا في تلك الساعة، كما بدا لي. الأسرَّة في غرفة الضيوف المفتوحة تبدو فارغة، الألحفة مطوية، وصوت رضيع، كأنه ممغوص، ينز من إحدى الغرف الداخلية، خمنت أنه لابنتها فاطمة، وكنت قد لاحظت تثاقلها بفعل الحمل، في آخر زيارة لي قبل سفري إلى ماليزيا.

سألتها:

- هل وضعت فاطمة؟

- نعم، جاءت بذي النون منذ تسعة أيام، ولم تكن موجودًا لأُخبرك. متى عُدت؟

لم أستغرب قَطُّ أن يُسمى طفل حديث الولادة، باسم متسع كثيرًا على سنه، وبعيد جدًّا عن أسماء المواليد الجُدد في تلك الأيام. وكنت أعرف أن ملكة الدار وأسرتها يعشقون الأسماء القوية، يفرضونها على أصهارهم حتى لو كانوا غرباء، وينظرون إلى أسماء الرجال الحداثية الناعمة نظرات مليئة بالشفقة والتحسر. كانت لديها ثلاث بنات، كلهن تزوجن وأنجبن صبيانًا لم تخرج أسماؤهم عن: عبد الباسط، وعبد القيوم، والتنجاري، وأبو المعالي، وصهيب.

لم تكن ثمة فرصة، لأدخل إلى الغرفة التي ترقد بداخلها فاطمة برفقة إزعاج ذي النون، ذلك أن ثمة كارثة كانت معي؛ نيشان حمزة نيشان.

خُيل إليَّ أن ملكة الدار لم تنتبه لرفيقي في الضوء الخافت لحوش البيت. وكنت مخطئًا، لأنها سألتني ونحن نعبر في أشد بقع الحوش عتمة:

- لم تعرفني بضيفك؟

سأعرفها بضيفي ما دامت تستقبله في بيتها، هذا شر لا بد منه، لكني لن أنطق باسمه كاملًا ولا ناقصًا حتى، وسأكتفي باسم والده المألوف حمزة، ولا أظنه سيعترض على ذلك، فقد قرأت هي أيضًا «أمنيات الجوع»، قرأتها بتعثر وبطريقة الدايات القديمات، نصف المتعلمات، لا لأنها من عشاق القراءة، أو تهوى الثقافة في مجملها، ولكن قرأتها فقط لأني كتبتها، وتعرف

بالتأكيد مَن هو نيشان حمزة نيشان، المهووس الذي يسكن داخلها، ولو قلت الاسم كما هو، سأخترع عشرات من علامات استفهام لا ضرورة لها إطلاقًا.

قلت:

- صديقي حمزة، من الكُتاب الذين دخلوا المجال مؤخرًا.

كنا نتجول في الطرق ونتحدث، ووجدنا أنفسنا فجأة بجانب بيتك.

لم تقل شيئًا، أدخلتنا غرفة تتخذها عادة لاستقبال ضيوفها العابرين، خلافًا لتلك التي يقيم فيها مَن تتقطع بهم السُّبل، وكانت غرفة جيدة، ومفروشة بعناية، وفيها بجانب الكنبة الكبيرة وكراسي المخمل الحمراء، سريران من الخشب المصقول، يمكن لأي ضيف متعَب أن يتمدد على أحدهما. خرجت وعادت بعد عدة دقائق، تحمل كوبين من عصير البرتقال المخلوط بالثلج، وذهبت وهي تردد أن ذا النون يحتاج إلى خبرتها في معاملة المواليد، ليهدأ، وأعرف أنها شمت رائحة سر يصحبني، وأرادت أن تكون بعيدة.

رن هاتف نيشان وهاتفي في نفس اللحظة، رنة هاتفه غريبة بعض الشيء، كأنها صوت نباح بعيد، ورنة هاتفي مألوفة جدًّا، إنها أغنية فرائحية، أزعم أنها تحتل ثلاثة أرباع الهواتف النقالة في البلاد. لم أرد على هاتفي، وكانت مكالمة من نجمة، ولا بد ستطلب مني أن أُعلِّق على شيء كتبته بشأن ندوتها مع حزاز، في «فيس بوك». أغلقت الهاتف، بينما نيشان رد بسرعة، وبدا لي وإن لم أكن متأكدًا، أنه يحادث سيدة. كان ثمة صوت حاد

ومتدفق، أستطيع سماع بعض تقاطيعه وأنا على مقعدي. ردد كلمة «نعم» أكثر من عشر مرَّات، ثم أغلق هاتفه وتحول إليَّ.

الآن سأعرف ماذا فعلت في حقه حين ألفت «أمنيات الجوع»، وماذا سيفعل في حقي حين أستمع إلى قصته وأفهم.

مد يده إلى كوب عصير البرتقال، قرَّبه من فمه، ولم يأخذ أي رشفة، وأعاده إلى مكانه. تنحنح قليلًا، وبدأ يتحدث، وأنا تحوَّلت إلى أذنين واسعتين، وهو ما لم أفعله منذ زمن طويل.

٦

كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحًا، حين أنزلت نيشان حمزة نيشان، في حي «وادي الحكمة»؛ أحد الأحياء التي لا تزال تحت الإنشاء، في الطرف الغربي من العاصمة، ويمكن أن يكون حيًّا راقيًا في المستقبل، وبدا لي في وضعه الحالي شبيهًا بالحي التعس الذي وصفته بدقة في «أمنيات الجوع»، ولم أكن قد زرته من قبل، ولا أعرف أحدًا من أهلي أو أصدقائي يسكنه، لأزوره.

كان نيشان حمزة هادئًا إلا من حركة اضطراب طفيفة في يديه وقدميه، ويبدو واعيًا ذهنيًّا إلى أقصى حد. كان يمسك برواية «أمنيات الجوع» بيده اليمنى بقوة، ويبحث بيده اليسرى في جيبه عن سيجارة، كما بدا لي، ولم تكن موجودة. منحته ما تبقى من سجائري، وأخبرته وهو ينزل من العربة، أنني سأعود للقائه مرَّة أخرى، ولم أعطه رقم هاتفي، أو أطلب رقم هاتفه؛ خوفًا من تبعات لا أريدها في الوقت الحالي.

كانت البيوت في «وادي الحكمة»، في معظمها هياكل ناقصة من الأسمنت والطوب الأحمر، بعضها من طابق واحد، بعضها

من طابقين، وبعضها يمتد عاليًا إلى بعيد، أمامها أسرَّة من الخشب الخشن، منسوجة بحبال ممزقة، يرقد عليها نفر من الخفراء المكلفين بحراستها. وثمة بيوت أخرى مشيدة بالخيش والصفيح وجذوع الأشجار، مشتتة في المكان، وتبدو لفقراء أو نازحين من أطراف بعيدة، هربًا من حروب أو مجاعات، أنشأوها على أراضٍ خالية، لم يتم إعمارها بعد، ولا بد سيُرغمون على إخلائها، حين يأتي الملاك الأصليون ويبدأون البناء. وكان بيت رفيقي واحدًا منها.

لم تكن ثمة كهرباء متوفرة، وكانت أضواء فوانيس الجاز مشتتة في المكان، كئيبة وشاحبة، وتمنح الليل أبعادًا موحشة. فكرت أن لا أحد يمكن أن يكون قد قرأ «أمنيات الجوع» هنا، فما دامت لا توجد حياة، فبالتأكيد لا توجد قراءة، وما لم يقل نيشان شيئًا عن تلك الكارثة، فلن يعرف أحد هنا أي شيء.

درت في الحي عدة دورات سريعة، وخرجت وعشرات الكلاب المستوطنة تتراكض، وتنبح خلف عربتي، ونفر من الخفراء الراقدين هبوا من أسرَّتهم يتفقدون الوضع.

لم أكن مذعورًا ولا هادئًا تمامًا. هي لحظة حياد عظيمة، امتلكتني، وسأسعى للحفاظ عليها في ما تبقى من أيام، حتى أستطيع العثور على أجوبة ملائمة لتلك الغرابة الأخَّاذة التي أمضيت أكثر من ساعتين وأنا أستمع إليها في بيت ملكة الدار، وأحاول استيعابها جادًّا ولا أستطيع.

نيشان حمزة نيشان داخل رواية «أمنيات الجوع»، هو نفسه نيشان حمزة نيشان الحقيقي، الأُمي الذي هاجر أهله من

«انجمينا» في تشاد، أيام حكم رئيسها الدكتاتور «فرانسوا تمبلباي»، في أوائل الستينيات من القرن الماضي. استقر والده في العاصمة، حارسًا لإحدى البنايات السكنية الخاصة، وسعى جاهدًا ليعمل ابنه فراشًا في مدرسة ابتدائية وهو في العاشرة، وظل الابن يعمل في تلك الوظيفة حتى سن الثلاثين، حين انفتح على الدراسة فجأة بتحريض من تلاميذ صغار، وابتدأ يتعلم، وأكمل المرحلة الثانوية منذ عامين، وسعى جاهدًا للدخول إلى الجامعة، ودراسة القانون، لتُفاجئه أعراض الفصام الموسمي، وتعوق تقدمه.

الممرضة ياقوتة، كانت ممرضة هنا بالفعل في مستشفى الأمراض العصبية والنفسية الحكومي، حتى عام مضى، أحبها نيشان بعد تعرفه إليها أيام وعكته الأولى، وآزرته في محنته بكل إخلاص، ثم اختفت فجأة، غيرت اسمها إلى رنيم، وسافرت للعمل في ليبيا المحرَّرة من حكم القذافي، بعد أن عثرت على وظيفة.

المرأة الأرستقراطية التي كانت تضخ التعالي في النَّص، بسبب وبلا سبب، هي سعاد معتصم، صاحبة البناية التي عمل فيها والد نيشان حارسًا حتى رحل، وماتت إثر جلطة في الدماغ، في العام الماضي. والعسكري الطموح الذي حاول أن ينقلب على الحكم بلا مؤهلات تجعله حتى قائدًا لفريق كرة قدم هامشي، وأُعدم مع رفاقه إثر ذلك، كان شبيهًا بواحد من قبيلة نيشان، اسمه أصيل موقادو، خاض المغامرة نفسها، واقترب من الإمساك بالسُّلطة، فقط لم يُعدم؛ فقد فر في لحظة قدرية فارقة،

والآن هو حيٌّ في موطنه الذي نزح منه أجداده؛ تشاد، يتبجح بكونه غامر، وكاد أن ينجح.

القصة قريبة جدًّا مما كُتب في «أمنيات الجوع»، حتى الصفحة التي توقفت فيها على أرض الواقع، وكانت هي الصفحة المثنية التي ظل نيشان يطالعها من حين إلى آخر، ويكتب الملاحظات أسفلها، وهو برفقتي في العربة، الصفحة رقم ١٢٠، حين يتأزم وضع البطل، كمريض بالفصام الموسمي، وتفاجئه الأعراض مجددًا.

كانت بعض الأسماء حقيقية، مثل اسم نيشان بالطبع، والممرضة ياقوتة، التي اختلفت نهاية قصتها في الواقع، ففي حين ظلت في النَّص تحمل اسمها حتى النهاية، وتؤازر البطل حتى لحظاته الأخيرة، وتبكيه حين يرحل، تغيَّر اسمها إلى رنيم في الواقع، وسافرت بحثًا عن حياة أفضل. وكذا قصة أصيل الذي فر واقعيًّا، وسعاد معتصم التي لم تمت في النَّص بجلطة الدماغ، وماتت من تليُّف في الكبد في منتصف الرواية. لكنَّ العمل، في مجمله، كان صفحات صلبة من حياة رجل هامشي فقير، ويائس، أوصلها إليَّ بطريقة ما، وجعلني أتلاعب في بعض فقراتها، مع الاحتفاظ باسمه، وتاريخه وحاضره. ولأن النَّص مكتمل بالفعل، والواقع ما زال عند الصفحة المثنية، فلا أنا ولا نيشان، نستطيع أن نجزم أن النهاية ستكون واحدة.

لكن كيف حدث ذلك؟

كيف حدث؟

كنت أسأله، وأطرافي باردة، قلبي متسارع النبض، وذهني بعيد تمامًا عن أي توقد.

لم يكن يدري، ولا أحد آخر يمكنه أن يدري، كما أعتقد. شيء غريب حدث، وعليَّ التسليم بأنه حدث، وأسعى لإيجاد تفسير له إن استطعت. عليَّ أن أنسى بأنني زرت كوالالمبور، ذات العنفوان الشقي في أي يوم من الأيام، وعدت بتوابل شرقية كانت ستُنتج نصًّا، وأبذل جهدًا مضاعفًا لإيجاد مصير واقعي للرجل، يختلف تمامًا عن مصيره في النَّص. لن يكون ذلك بيدي، أو في حدود قدراتي، فقط عليَّ أن أسعى. أحسست بتعاطف محموم تجاه الرجل، وفكرت في عدة خطوات، سألته:

- هل تعرفني قبل «أمنيات الجوع»؟ هل قرأت لي عملًا؟

- لست قارئًا منتظمًا للأدب ولا غيره بحكم ظروفي. أنا فقير وتعلَّمت متأخرًا، لكني أعرفك بكل تأكيد، قرأت لك فصولًا متفرقة من روايات في الصُّحف، قرأت حوارات لك أيضًا، وبعض المقالات التي لم أكن أفهمها جيدًا.

- و«أمنيات الجوع»؟ كيف صادف أن قرأتها ما دمت لا تقرأ؟

- أحضرها لي أحد معارفي من سكان الحي حين عثر على اسمي وقصتي داخلها. كان مغتاظًا وهو يسلمني الكتاب، فقد ظن بأنني أعرفك ورويت لك القصة بنفسي لتكتبها.

- هل كان من الشخصيات التي ذُكرت في الرواية؟

أسأله مرَّة أخرى، وأنا أشد شغفًا، وخوفًا من أن أكون كتبت شخصًا عدائيًّا باسمه وشوهته، وسيسعى لتدميري. خصوصًا أنه

يقرأ، وحصل على نسخة من الرواية، وقرأها بالفعل، ليعثر بداخلها على قريبه وقصته. وكان أكثر ما استغربت له، أن نيشان لم يكن عدائيًا قَطُّ، لم يهاجمني ولم يتهمني أي اتهام.

- لا. لم يكن موجودًا داخل الرواية.

رد وهو يكتم رنة جديدة من هاتفه القديم، بدأت تلح، وتنهدت أنا بارتياح، لقد نفدت من هذه إذن.

سؤال آخر:

- والرجل التشادي الذي اشترى أختك مبروكة وهي طفلة، واختفى بها في مجاهل أفريقيا، هل هو حقيقي؟ وأختك نفسها، هل لك أخت تحمل اسم مبروكة؟

- لا. لم تكن لديَّ أخت ولا أخ، كنت وحيدًا في حياة أهلي، والآن أنا وحيد كما تعرف.

كانت عشرات الأسئلة تتناسل في عقلي، وتسعى للركض إلى لساني، منها قصة صاحب الشاحنة الذي كان يقيده بالحبال حين يتهيج، وبائع العطارة نشار الذي كان يقرضه المال من حين إلى آخر، والدمى المتفجرة، هل كان يُلقي دمى متفجرة بالفعل على الرجال المتأنقين، والفتيات الجميلات في الطرق؟ وهل سعى للعلاج بجدية؟ هل دخل السجن مثلًا، كما حدث في إحدى فقرات النَّص؟ لكن الأسئلة انهزمت، حين تغير نيشان فجأة، شاهدت عينيه تحمران، شفتيه ترتعشان، يديه تتحركان في الفراغ بتشنج، وشيئًا من ريالة مكثفة يفر خارج فمه. ارتفع صوته مجيبًا على صوت وهمي يناديه:

- انتظرني يا ربيع.. انتظرني أرجوك.

وبدا لي أنه قد يكسر كوبًا من كوبي عصير البرتقال على رأسي، أو يحطم مقعدًا من مقاعد المخمل، وربما ينفلت إلى داخل الغرف المخفية ليكتم أنفاس ملكة الدار وذي النون وأمه فاطمة.

لم أكن أستطيع التكهن بما يمكن أن يفعله مهووس ساعة هياجه، ورأيت من قبل شخصيات مثله في لحظة هياج مباغت، ولا أنسى منظر شاب رأيته في أحد الأيام في الحي الذي أسكنه وقد خنق عضوه الذكري بقطعة مدوَّرة من الحديد الصدئ، وانفجر عضوه أمامي.

وقفت بسرعة وأنا أحس بالرعب والذنب لأنني اهتممت به أصلًا، وأدخلته بيتًا يحترمني ويقدرني. أمسكته من يده وجررته خارج البيت بصعوبة. كنت ألهث، وكان ثقيلًا جدًّا ومتصلبًا. ألقيته على المقعد الخلفي للعربة، وأنا أبحث بجنون عن حبل أُقيد به يديه وقدميه، وكانت ملكة الدار قد جاءت تركض برغم سنها، وتوعك ركبتيها، وظهر من خلفها أحد أصهارها، زوج فاطمة بالتحديد. كانا يسألان عن الخطب، وأصررت بأن لا خطب هناك، مجرد نوبة صرع أصابت صديقي الكاتب، وأسعى لإسعافه، وكان نيشان قد هدأ قليلًا لحسن الحظ، وأصبح بالإمكان أن أنقله إلى بيته بلا خوف.

حين وصلت بيتي أخيرًا، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا. كان الشارع ما زال مطروقًا في مدينة لا تهدأ، وثمة بقايا لعُرس أقيم فيما يبدو أمام أحد البيوت المجاورة، وعمال يلسعهم النعاس، يحرسون «الصوان» والمقاعد، ولا يقدرون على الحراسة

جيدًا. وقد شاهدت رجلين بثياب رثة يضعان عدة مقاعد على عربة للكارو، ويفران بالغنيمة.

أمام بيتي شاهدت ظلًّا متأرجحًا، وبدا لي ظل نيشان حمزة وارتعبت. درت بالعربة عدة دورات، وعُدت مرَّة أخرى، ولم يكن ثمة أحد هناك. الآن أعرف أنني لن أنعس أبدًا، وسأقضي تلك الساعات المتبقية لنشاط الصباح وفورانه، مستيقظًا، متخبطًا في كل شيء، أتعجل ذلك الفوران لأندس فيه، متتبعًا المخارج التي ربما تلوح لي.

جلست على مكتبي في الصالة المحشوة بالكتب، فتحت جهاز الكمبيوتر الذي أكتب عليه، وألقيت نظرة متعجلة على ملف كوالالمبور، وبدا لي ما كتبته حتى الآن مجرد خربشة مزرية على جدار رواية، قُدر لها ألَّا تُكتب في ظرف لا تُكتب فيه الروايات.

كان الصيني تولي معالج الوخز بالإبر موجودًا، وبدأت ملامح تفرده ترتسم: أناقته السخية، ابتسامته المرسومة بعناية، انحناءاته المتكررة أمام كل زائر، فركه لأصابع يديه بين لحظة وأخرى. لكن مزاجي لم يكن معه، في الواقع كان ضده. اليساري «الأمريكي - الياباني» هوشيكا أيضًا، اخترت له مستقبلًا خطرًا في بلاد لا يفقهها، ولن يعيش فيها حتى المئة كما كان يأمل في الواقع. والسكرتيرة أنانيا فاروق رسمتها بالفعل، كحَّلت عينيها بكحل الحجر، نقشت على يديها الحناء داكنة، بطريقة نسائنا التقليدية، وألبستها ثوبًا وطنيًّا مطرزًا، وكنت في مرحلة غرسها في التربة المالحة لتنمو أخَّاذة ولكن جارحة. أنا ضدها الآن، وضد إيحاءاتها، ولن أخطو بها أي خطوة أخرى في النَّص.

كان ثمة سكير صيني اسمه «يان يان»، يجاورني في الفندق الذي أقمت فيه في كوالالمبور، واعتاد أن يطرق باب غرفتي كل ليلة، بلا سبب واضح، وجعلته مستثمرًا يزور بلادًا بلا سكر، ورسمته بمضاعفات إقلاع السكر المؤسفة، والآن أتركه أيضًا معلقًا.

أغلقت ملف أفكاري، ودخلت إلى عالم «فيس بوك»، كمحاولة لنسيان ما يحدث حولي، عثرت على آثار نجمة، وقد غيَّرت صورتها الشخصية، ووضعت صورة لها مموجة الشعر وبلا غطاء رأس، وكتبت عدة أسطر عن فعاليتها مع البروفيسور حزاز. وكالعادة توجد مئات الإعجابات والتعليقات، وبعض أصدقائها يعاتبونها على عدم دعوتهم للفعالية. وضعت علامة إعجاب، وكتبت: «ما أروع الأمسية»، وعرجت سريعًا على صفحة أخرى كنت أعتبرها كنزًا، وكانت مفتوحة باسم فتاة اسمها ناريمان، ربما كانت بالفعل ناريمان، وربما وهمًا من أوهام عالم مفتوح ومزرٍ في كثير من الأحيان. وكانت قد جمعت في تلك الصفحة أصدقاء لا يمكن تجميعهم في عالم واقعي بأي شكل من الأشكال. كان من بين أولئك الأصدقاء رجال باللحى والعمائم سقطوا في الإغواء بالثقل كله، سموها الأخت الفاضلة، ويتنافسون الآن في مدح خصال لا يعرفونها، وكتابة الشعر الغزلي العفيف كما سموه، في عيني صورة وضعتها لفتاة ترتدي النقاب. وهي تكتب آيات وأحاديث وحكمًا، وتدعو للفضيلة من حين إلى آخر. من أصدقائها أيضًا ألغاز مثل: بائع لبن العصفور، والمسيخ الدجال، وشاحن الموبايل، وترتورة ساحرة البيت السعيد، ونسمة

جارحة، وأنا الحرباء، وكثيرين كانوا يكتبون السفاهة أو يتحدثون عن الإحباط أو يكتفون بعلامة إعجاب سريعة.

قرأت قصيدة جديدة للداعية الشيخ معروف، كما يصف نفسه، تتغزل في عينين نجلاوين على وجه مشع برغم غطائه، ونداء عاجلًا من الداعية، ساكن الأرياف مشتاق، أن تنزع النقاب عن صورتها وتكتفي بالحجاب كرمز للتدين، أو ترسل له على البريد الخاص صورتها معدلة لأن لديه مفاجأة لها. ولأن صورة واضحة لجهاز التنظيف «كيري» كانت تتوسط الصفحة بلا أي سبب واضح، فقد كتب أحدهم: «نحتاجه لتنظيف قلوبنا».

ابتسمت وخرجت من ذلك الجو غير المألوف. عدت إلى صفحتي الشخصية وكتبت: «تخاطر»، ولم أنتظر أي تعليق. أغلقت الصفحة، وذلك العالم الغريب الذي يمتلئ بكل ما يحتاجه الروائيون.

فجأة تذكرت الصفحة المثنية من «أمنيات الجوع»، الصفحة رقم ١٢٠، وبدأت أنكش مكتبتي بحثًا عن الرواية، وقد تخلت عني حالة الحياد التي امتلكتني بعد منتصف الليل. كنت متأكدًا بأن عدة نسخ من الرواية ما زالت موجودة في مكان ما، لكني لا أعرف أين وضعتها. بحثت وقلقي يزداد، في الصالة الرئيسية، حيث مكتبتي الكبرى، وفي الغرفتين اللتين أسستهما كفرعين للمكتبة. عثرت على كل الأعمال التي كتبتها، وحتى تلك التي أسقطتها من تجربتي ولا آتي على سيرتها في أي شهادة أكتبها أو حوار أجريه، ولم أعثر على الرواية التي هي أحدث ما نشرت، وكان من المفترض أن تكون لديَّ نسخة على الأقل. ربما وزعت

النُّسخ كلها على أصدقائي، ربما أضعتها في مكان لا أستطيع تذكره، وربما كنت أحلم مستيقظًا، وليس لي أصلًا رواية اسمها «أمنيات الجوع». أنهيت بحثي في البيت، وفي غرفة نومي التي لا يدخلها إلا نعاسي أو أرقي برغم يقيني أنها لن تكون هناك، وخرجت أنقب في السيارة، وهناك عثرت على نسختين في الحقيبة الخلفية وعدت ظافرًا.

أشعلت سيجارتي، وفتحت صفحة نيشان بلهفة، وبدأت أقرأ كما يقرأ أي شخص محايد لا علاقة له بالموضوع. أردت أن أستوثق أين يوجد نيشان في الواقع، بالرغم من أنني أكاد أتذكر الرواية كلها، وأستطيع استعادتها في ذهني كما حدث في نادي «الرفاق الاجتماعي»، وأنه أخبرني بنفسه بمكان وجوده داخل النَّص.

قرأت:

> **العام الثاني على التوالي، وفي نفس التوقيت من شهر أغسطس الحار، الرطب، برغم زخات مطر الخريف من حين إلى آخر، وبعد أن قدَّم نيشان حمزة أوراقه للجامعة الوطنية، وبدا أنه سيُقبل هذه المرَّة، ويحقق طموحه في دراسة القانون ليصبح قاضيًا، حدث ما زلزل استقراره وزلزل الطموح. كثيرون من معارفه وجيرانه في الحي المنسي، كانوا يتطفلون على رغبته، لماذا القانون بالذات يا نيشان، فيرد: حتى أحاكم سهلة ماشطة الشعر على تزييت شعر النساء. يقول ويضحك.**
>
> **كانوا في الحي ينظمون عدة حملات طوعية في وقت واحد: حملة للنظافة العامة؛ مقترحة من سكان لا يعرفون**

عن النظافة سوى اسمها، حملة ضد الإزعاج وكان يقودها مسعود الممرض، أكبر مزعجي الحي على الإطلاق، وسلموا نيشان آخر حملة لقيادتها وتوجيه أفرادها، إنها حملة استثنائية، ضد الحسد.

من كان يحسد في حي فقير؟ وماذا يحسد؟ والناس يتساوون حتى في الإمساك والإسهال، وبروز فكي التعاسة والجوع.

- قدها فقط يا نيشان.

وقادها ليكتشف، وتكتشف معه البيوت المنخفضة الطينية، وبيوت الصفيح المشتتة بلا تناسق، أن كل الناس حُسَّاد وكلهم محسودون. هناك مَن يحسد آخر على ثوبه المغسول ويلمع بالنشا، ويحسده الآخر على سروال سليم ليس فيه مزع ولا رقعة. مَن يحسد متسولًا لأن له صوتًا مقبولًا يشد المتصدقين، ويحسده المتسول على الشعر الغزير الذي ما زال يغلف رأسه. مَن كانت تحسد جارتها لأنها أوقدت نارًا للطبخ، في ذلك اليوم، وتحسدها الجارة لأن لها ولدًا يتزحزح الآن في معاينات التجنيد، ويمكن أن يصبح عسكريًّا.

كان نيشان منغرسًا في الحملة، واخترع وجهًا جامدًا، ومشاعر متصلدة، وسعى، مع أفراد حملته، لغربلة النفوس بحدة، وإلغاء شعور الحسد من سكان حيه إلى الأبد.

لن يحسد أحد أحدًا هنا مرَّة أخرى، وإن كان لا بد من وجود شعور كهذا، فليكن عكسيًّا؛ أن يصبح السكان جميعهم محسودين، من غرباء لا يعرفهم الحي، ولن يعيشوا فيه.

في العام الماضي داهمته أعراض غريبة، فسرها البسطاء بأنها قبيلة جن تناسلت داخله، وسعى بعض العاملين في مجال التطبيب بالتعاويذ إلى إخراجها وأخفقوا. وحين أصبح خطرًا حقيقة، يصنع دمى من القماش، يحشوها بالمتفجرات، ويلقيها على الناس في طرق العاصمة المحتشدة، أمسكوه، وانتهى مقيدًا إلى سرير متآكل في مستشفى الأمراض النفسية. عُولج بالحقن المهدئة، وجلسات الكهرباء الصاعقة، وأحب ممرضة اسمها ياقوتة، كانت من بيئة شبيهة ببيئته، ومن قبيلة لها جذور أفريقية مثله. الممرضة خصَّته بعناية أكثر، كلَّمته عن نفسها، وسمحت له بأن يحكي ما يود أن يحكيه، ولم تُسكته في أي وقت. بدا أن نيشان قد تعافى، وسعى إلى وصال دائم بصديقة الذهول والحمى، بعد أن خرج. كان يزورها في المستشفى، يرابط لها في الطرق التي تسلكها، ويتعلق معها في باصات المواصلات العامة، يحدثها طوال الطريق وتحدثه، وكم من مرَّة أقرضته مالًا غير قابل للرد.

كان الآن يستطيع أن يحب كما يريد، يفكر في الزواج كما يفكر العاديون، يتفاعل في حيه بلا مشاكل، ويقود حملة الحسد تلك. لكن الأعراض عادت والآن يضطرب، يحلم بالكوابيس، يسمع أصواتًا تناديه، ويبحث عن وسائل الإيذاء حتى يؤذي، وفي لحظات الوعي يبكي وحده، في بيت الصفيح المضني، أو في الشوارع، أو أي ركن مغبر يستريح فيه.

انتهت الصفحة المثنية، حيث يشتبك الواقعي مع

الافتراضي، وكانت واضحة جدًّا، استوعبتها بروح القارئ الذي يستوعب، وفهمت أنها رسالة استغاثة تبحث عن مغيث، وقد أُلقيت في مياه حياتي، وحوَّلتها إلى مياه عكرة.

كان الليل قد انتهى بالفعل، وتكوَّنت خامات الصباح كلها. أصوات باعة الخبز والحليب الجائلين، أصوات تلاميذ المدارس، أبواق سيارات، وطنين آليات حفر الشوارع. تمددت داخل غرفتي أحمل الأرق والأسي، وأحاول ألَّا أفكر ولا أستطيع.

٧

في الثامنة تمامًا، وبلا نعاس أو شبهة نعاس، كنت مرابطًا متوترًا في بيت صديقي القديم عبد القوي جمعة، الذي اشتُهر بلقب «الظل»، وكان يسكن في بيت جيد مبني بالطوب الأحمر، ومدهون بطلاء رمادي لماع، في حي الزهرة الراقي القريب من مطار العاصمة.

كان عبد القوي الظل في التاسعة والثمانين، وكان ممثلًا وشاعرًا غنائيًّا، وكاتب نصوص مسرحية، لم يشخ، ولم يتوقف تدفق إبداعه قَطُّ. وقد اشتُهر بأغنيات حماسية صاغها في فترات عصيبة من تاريخ الوطن، ومسرحيات ساخرة ومُبكية، وكانت مسرحيته «دم من قش»، التي قدمها في منتصف ثمانينيات القرن الماضي، في مسرح الشباب الوطني واستمرت عروضها عامًا كاملًا، واحدة من العلامات الكبرى التي لم ينسها الناس قَطُّ. وقد قام منذ تسعة أعوام بتحويل روايتي الثالثة «سر في بئر» إلى نص مسرحي بنفس الاسم، كان له حضور جيد في تلك الأيام.

كنت بحاجة لاستشارة الظل، لاستقاء تجارب مُعلِّم وحكمة

شيخ في موضوع أرقني بشدة، وسيظل مصدر أرق طويل يمنعني من القراءة والكتابة، ما لم أتوصل إلى حل.

حدثت الظل مباشرة، وبلا مقدمات طويلة، بموضوع نيشان حمزة نيشان، الرجل الذي كتبته في «أمنيات الجوع»، ولا أعرف كيف كتبته. اضطررت إلى تذوق قهوته المُرة التي يصبها من برَّاد موضوع في المكان، ومشاركته إفطاره المكون من بيضتين مسلوقتين، بلا ملح ولا بهارات، وكوب من عصير البرتقال المُر، أعرف تمامًا أنه سيوقد حموضتي، ويؤجج أعراض ارتجاع المريء في حلقي. اضطررت إلى مشاركته رياضة شد البطن التي كان يمارسها بلا تعب ولا لهاث وهو ممدد بجانبي، ويخبطني على بطني بخشونة كلما توقفت عن الشد بسبب التعب.

حين انتهينا أخيرًا من ضرورات صباحه كما كان يُسميها، وأمكنني أن أتنفس بلا صوت، وأوقد سيجارتي، بدا الظل مهتمًّا. طالبني بإعادة قصتي بلغة أدبية سلسة، وكأنها واحدة من رواياتي، ولم أفهم سبب طلبه، ولم يكن بالإمكان تلبيته، لأن كتابة الرواية جنون آخر لا يمكن اقترافه في حضرة رقيب، حتى لو كان مبدعًا عظيمًا كالظل. لكني أعدت الحكاية على كل حال.

- تعرف. . .

كان يقول:

- هذه القصة تذكرني بمسرحيتي القديمة «شيطان عجوز في القصر الجمهوري» التي دخلت بسببها السجن في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، هل تذكر تلك المسرحية أيها الكاتب؟

في الحقيقة لا أذكرها، ولم أسمع بها من قبل قَطُّ، من ضمن ما سمعت به من مسرحيات له ولغيره، ذلك ببساطة أنني لم أكن قد ولِدت في ذلك الحين، ولا أذكر أنها صدرت في كتاب يمكن قراءته.

قلت بلا تفكير، ولا إحساس بوجود فخ منصوب، وأنني أنافق عجوزًا بذاكرة صبية:

- نعم. نعم. أذكرها بكل تأكيد.

قال وعيناه تبرقان، صوته حاد لكنه غير جارح:

- بالتأكيد تذكرها، لقد شاهدتك في بطن أمك وأنت تضحك، وتصفق في نهاية العرض!

أحسست بشيء من الخجل، ووددت أن أعتذر مبررًا سلوكي بانغماسي في معضلة نيشان، ولهفتي لسماع رأيه فيها، ولم يتركني الظل أفعل ذلك، لوح بيده في وجهي، واعتذاري على وشك أن يندلق، واستمر:

- لا عليك. تلك المسرحية العظيمة، التي كانت أول نص ينتقد الدكتاتورية بجرأة في البلاد كلها، ويُزحزح قناعات الناس فيمن يحكمهم، ويُشعل بوادر التظاهرات في الشوارع، والعصيان في الدوائر الحكومية، لم أكتبها أنا على الإطلاق، وإنما أرسلها إليَّ القسيس «ماثيو» راعي الكنيسة الأنجليكية، في ستة وعشرين حلمًا متعاقبًا. كنت أصحو يوميًا وأكتب ما جاءني في الحلم من دون زيادة ولا نقصان. لذلك لا تستغرب أن يرسل لك نيشان قصته، ويتلاعب هو لا أنت في بعض تفاصيلها. هل فهمت الآن أن الأمر عادي ولا يدعو للدهشة؟

أحسست بغتة بأن الظل قد تجاوز عنفوان الصبا الذي وصفته به، وانتقل إلى جفاف الشيوخ الرث. أوشكت أن أبين رأيي، واستغربت كيف أحس إحساسًا كهذا والرجل يسرد موقفًا مؤازرًا، حتى لو لم يكن حقيقيًا. كما قلت، لم أسمع بمسرحيته تلك، والآن أؤكد بأنني لم أسمع بالقسيس «ماثيو» أيضًا، ولا أدري إن كان شخصًا حقيقيًا تقلد منصبًا حقيقيًا ذات يوم، أم هو من اختراع كاتب المسرح.

سؤالي: ما هو وجه الشبه بين قصة «ماثيو» وقصة نيشان حمزة نيشان؟

أنا لم أكتب أحلامًا على الإطلاق، وكنت واعيًا وفي كامل انتشائي، أتقلد طقوسي الجيدة والرديئة معًا وأنا أكتب «أمنيات الجوع». قلت إنها كانت تنساب بلا عقبة تُسمى عقبة. ربما كان هذا وجه الشبه، الحلم الذي يمكن تذكره عند عبد القوي جمعة، والحلم المنسي الذي يتذكر نفسه بنفسه، في أثناء الكتابة، عندي أنا.

كان عبد القوي الظل قد نهض من اتكاءته على سرير الحبال، واتجه بخطوات صبية إلى داخل حجرة تطل على الحوش حيث نجلس، يتخذها مكتبًا. قال لي، وهو يمضي، إن فكرة عاجلة داهمته بالرغم من أن وقت كتابته لم يحن بعد، وعادة يبدأ في العاشرة، وعليه أن يدون الفكرة سريعًا ويعود. ما يدهشني في الظل أنه مقتنع تمامًا أنه الألمع والأشهر، وسيد المواقف التي له فيها والتي ليس له فيها، ويعاملني الآن برغم سني وشهرتي العريضة، كأي مبتدئ يعطله. كنت أردد دائمًا حين ألتقيه أنه

الأكبر سنًّا، وكان نجمًا فعليًّا مضيئًا، حين كنت مجرد طفل قصير النظر لا يعرف عن الكتابة أكثر من اسمها. صحيح أنني لم أتأثر به، ولا كتبت المسرح أو الشعر، ولا هو كتب الرواية، لكني أعتبره أستاذي وأستاذ جيلي كله.

عاد بعد نصف دقيقة وهو يصرخ:

- عثرت على غبار متراكم في مكتبي وطارت الجملة. سأستعيدها لاحقًا حين ينفضون المكتب... يا ليندا.. يا نعمة.. يوجد غبار يعطل الأفكار.

اتخذ اتكاءته مرَّة أخرى على سرير الحبال، وكان السرير مرتخيًا وقد تنتفت بعض حباله. كنت أدخن وقد تكوَّن سؤالي على طرف اللسان، ثم قفز:

- لم تقل لي ما هو وجه الشبه بين قصة «ماثيو» وقصة نيشان حمزة، هل كتب القسيس اسمه وشخصيات يعرفها وعاش معها، وأرسلها في الحلم؟

- لا. سؤال لم أنتظره منك حقيقة أيها الكاتب. ما علاقة رجل دين مسيحي بالدكتاتورية، ليكون موجودًا بنفسه في قصة تنتقدها؟ قلت إنه كان يكتب مسرحية عن الدكتاتورية في ذهنه، ويرسلها إليَّ لأكتبها على الورق. كان يتخاطر معي من دون أن أدري أو يدري هو، كما تخاطر معك نيشان حمزة بالضبط. الفرق أن القسيس «ماثيو» لم يكن معنيًّا بمصير الشخوص، ولا يهمه لو انهد القصر الجمهوري على رؤوس شاغليه، بعكس نيشان الذي جاءك لتُغيِّر مصيره. كتبت أنه سيموت بسرطان الغدد في روايتك، وهو لا يريد الموت. سيتحمل مرض الفصام العقلي

ويتآلف معه، ما دام لن يموت به، لكنه خائف جدًّا من الموت بالسرطان. إنه يستنجد بك. هل فهمت الآن؟

فهمت بعض الأشياء وما زالت أشياء أخرى غائبة عن الفهم. هذا ما قلته في نفسي، ولم أقله للظل.

لكن لماذا لم يسعَ القسيس «ماثيو» لكتابة مسرحيته بنفسه على الورق ما دامت لديه أفكار؟ ولماذا تلاعب نيشان في قصته، ولم يوقفها عند حد الفصام ما دام خائفًا من الموت؟ كانت أسئلة بلا أجوبة، في الواقع هي أسئلة بلا منطق يسألها، ولا منطق يجيب عنها.

الآن سؤال آخر أعتبره مهمًّا جدًّا، تكوَّن والتهب في اللسان:

- وكيف عرفت أن القسيس «ماثيو» هو مَن أرسل إليك تلك المسرحية تخاطريًّا، ولم يرسلها أحد آخر؟ كيف أثبتَّ ذلك؟

ضحك الظل عبد القوي من داخل أحشائه الضامرة. نهض من اتكاءته وجلس على السرير. كانت قدماه حافيتين، ورقيقتين، وفيهما قشور مزرية. مد يده لبرَّاد القهوة ليصب فنجانًا لي وله، وكان البرَّاد فارغًا.

ردد:

- هذا سر لن أصرح لك به، كما لم أصرح به لأحد آخر. لقد وعدت القسيس «ماثيو»، منذ خمسين عامًا، ألَّا أُخبر أحدًا، وقد زرت قبره منذ يومين فقط، وجددت وعدي. ما أريدك أن تفعله، هو أن تهتم بصاحبك إلى أقصى ما يكون الاهتمام. أنا اهتممت بالقسيس حتى مات. لقد كنت ممتنًّا له، لأنه أضاف إلى سيرتي الذاتية فقرة مهمة، هي فقرة «السجن السياسي».

سؤال لم يكن الأخير في سلسلة تلك الأسئلة التي بدا لي أنها لن تنتهي، ولكني سأجعله الأخير:

- وهل سعيت لمعرفة كيف حدث ذلك كله؟ هل اهتديت إلى نظرية ما فيما يختص بتخاطره معك؟

قال الظل بحدة:

- لا. لم أحس أنني بحاجة لذلك.

بدت فتاة سمراء بنهدين ضامرين وشعر قصير متجمد على قمة رأسها، لعلها خادمة أو لعلها من أهل البيت، تخطو من الداخل، وهي تحمل منفضة من الريش، وتتجه نحو الحجرة التي يتخذها الظل مكتبًا. لقد دخلت تلك الحجرة من قبل عشرات المرَّات، وكنت في بداياتي أتلصص على نوع قراءاته في الكتب التي يتركها مكفية أو مثنية الصفحات، وأحيانًا أستعير كتابًا يعجبني من دون إذن، أرده بعد تصفُّحه، أو لا أرده على الإطلاق. وقد مرر لي في العام الماضي، ونحن نجلس فيها، قصة مكتوبة بخط اليد على ورق مصقول، قال إنها لفتاة شابة، وطلب رأيي صراحة.

أمسكت بالورق وألقيت نظرة، لأكتشف أنها قصة «عتود الجيران» لنجمة المتعالية، ولا بد أنها أحضرتها له بعد أن استاءت من رأيي السلبي فيها. قرأتها مرَّة أخرى بتمعُّن، وعيناه تراقبانني، وقلت:

- طبخة نيئة، ينقصها الكثير من التوابل.

- صحيح.

ردد الظل وقد لمعت ابتسامة عجوز في وجهه:

- هذا رأيي أيضًا، لكني لم أقله للكاتبة، لم أتعوَّد أن أُعطي النساء رأيًا فظًّا حتى لو كتبن عن المانيكير، والشامبو، ومستحضرات ويلا التجميلية.

- وكيف تخرج إذن من مطبات إلحاحهن في طلب الرأي؟ هل تُجاملهن؟

ضحك عبد القوي الظل، وكانت أسنانه بيضاء ولامعة، ولا بد أنها طقم صناعي كامل، فلا توجد طاقة لأي أسنان، حتى لو استُعيرت من ذئب أو ضبع، أن تظل بيضاء وناصعة، ومكتملة بتناغم على الفكين حتى سن التاسعة والثمانين. الذاكرة تستطيع بحشوها واستمرار حشوها، والجسد يتماسك بالرياضة المتصلة كل يوم، لكن الأسنان، ماكينات الطحن القاسي، لا تصمد كل هذا الصمود.

قال الظل:

- أمارس معهن الخرف البذيء؛ خرف اللسان واليد، والعيون المتلصصة، فيتركنني بلا رجعة.

ضحكت وأنا أتخيل فتاة مسكينة، معجبة بقصَّتها، وجاءت تعرضها لواحد من أهل الاختصاص، تنتهي مقابلتها مع الرجل المُسن بصعلكة لم ترد على ذهنها قَطُّ. تخيلت نجمة في ذلك الموقف ووددت أن أضحك أكثر.

- والكُتاب الرجال، ماذا تفعل معهم؟

- هؤلاء أقهرهم بالثرثرة عن ماضٍ أخترعه، وإحباط يلازم الكتابة، فلا يطرقون بابي أبدًا بعد ذلك.

خرجت الفتاة السمراء من الغرفة، وقد بدت منفضة الريش

في يدها حمراء، ولا بد أنها غسلت بها الغبار الذي أطار الجملة الطارئة من رأس الظل، وأنه سيدخل الآن لبدء نشاطه الكتابي اليومي، وأعرف أنه يمتد حتى الثالثة ظهرًا.

لم أتركه يقلق أو ينظر إلى ساعته لمعرفة الوقت، وكانت العاشرة قد اقتربت بالفعل. شكرته على مساعدته ولم أكن في الحقيقة قد خرجت بمساعدة قيِّمة. ما قاله كنت قد قلت أكثره لنفسي وأنا أدرس معضلة نيشان، رسالة المستغيث الخائف حين أرسلها وينتظر الرد مني. سألته وأنا أتقدم نحو باب البيت:

- هل أُرسل لك نسخة من «أمنيات الجوع»؟ لقد انشغلت ولم أُرسل لك نسختك، أعرف أنك لم تقرأها بعد.

رد:

- لا ضرورة لذلك، لقد استعرت نسخة ابنتي ليندا بعد أن قرأتها وستناقشك فيها بكل تأكيد.

ثم رفع وسادته التي يتكئ عليها وكانت ثمة نسخة من الرواية، محزحزة الأطراف ترقد هناك، وتبرز من داخلها قطعة من الخشب، كناية على أنه توقف في صفحة معينة. لم يطالبني بالتوقيع لابنته ليندا، وكانت هذه واحدة من مشكلات الظل الكبيرة. إنه لا يعترف بتوقيع على كتاب. كان يستلم النسخ المهداة، بلا أي توقيع، ولم يُوقِّع مسرحياته المنشورة لأحد قَطُّ.

مضيت في شوارع حي الزهرة أقود بتمهل، وأقرأ اللافتات المتعددة التي انتشرت بصورة مذهلة في السنوات الأخيرة، عيادات شفط الدهن من أجساد متخمة، عيادات أسنان حديثة تعرض على النساء ابتسامات ممثلات هوليوود، محلات تصفيف

شعر تضع قوائم بخدماتها المقدمة من سيشوار، وتجعيد، وتغيير صبغة، سماكرة، وحلاقون، ومحامون، ومحاسبون قانونيون، وباعة لكريمات السعادة الزوجية، ودهانات إعادة الشعر المفقود، وتوجد عيادة لعلاج الكلاب من نوع أكيتا، وبل تيرير، وبلدوق، وأخرى لعلاج جروح مرض السكر بتقنية الأكسجين المضغوط. وخطر لي أن البلاد جميعها تتاجر، ولا أعرف مَن يستهلك كل هذه التجارة. مؤكد ليس نيشان حمزة ولا سكان حيه الطرفي المحتل من قبل نازحين وخفراء وعمال كادحين. مَن سيشتري دهانًا للسعادة الزوجية أو كريمًا لإعادة شعر سقط من قهر الحياة؟

وجدت نفسي أفكر قسرًا في معضلة نيشان، وكنت قد نسيتها لدقائق، أفكر في ترتيبات محتملة أُغير بها من نمط حياتي المنعزل، وغالبًا سأتبنى ذلك المهووس بطريقة أو بأخرى.

هل أحس بذنب ما لأنني كتبته؟

لا أدري، ومن العدل ألَّا أحس بأي ذنب، ولم أكن من سرق خصوصية من أحد. هي الغرابة ما دبَّر كل شيء وأدار كل شيء، وخرجت أنا برواية لن تغنيني، ولن تضيف إلى الدنيا نيزكًا جديدًا، أو قمرًا مؤثرًا.

فجأة لمحت البروفيسور حزاز، متخصص الطب الانعكاسي الذي مللت من محاضرته في نادي «الرفاق الاجتماعي»، وخرجت ليلتقطني نيشان. كان بقميص أخضر فاتح، وسروال أسود، يهبط من عربة حديثة، من ماركة «همر» الأمريكية، حمراء اللون، وينزلق سريعًا إلى بناية بيضاء مكونة من خمسة طوابق، وتتوسط الشارع العام. مددت بصري، شملت به البناية، وعثرت

على لافتة كبيرة كُتب عليها بخط متعرِّج أنيق: «دكتور صابر حزاز، أخصائي الطب الانعكاسي».

ابتسمت رغمًا عني، وأنا أرى مهنة مدلك عادي يمكن أن يقوم بها حتى «مسامح»؛ سائق حافلة روزا في سكك المواصلات العامة، وأحد أصهار أمي ملكة الدار، وحتى أم سلمة التي تطبخ لي وتُرتب البيت، تُركب صاحبها عربة من ماركة «همر» الغالية، شبه المنعدمة في البلاد، بينما استدعاء الأفكار، وتكبيلها في الذهن، وإعادة صياغتها، وتعميرها في رواية صعبة، يمكن أن تجعل صاحبها يدخل السجن ببساطة شديدة، أو يركب عربة للموتى إلى حيث ينتهي كل شيء!

لم أحسد حزاز حقيقةً، إنما كانت مقارنة طارئة لا بد منها حتى أقرر إن كنت سأستمر كاتبًا موبوءًا بالمهووس نيشان وغيره من الكوارث، أم أعود مدرسًا لمادة الرياضيات التي نسيت أبسط قواعدها، وعليَّ استعادتها من جديد. تذكَّرت أن رجلًا كان يدير إحدى شركات الاستثمار أخبرني مرَّة أنه يعشق كتابتي ويود مساعدتي في إيجاد دخل مرتفع ثابت، كان عليَّ أن أدفع مبلغًا بسيطًا سأشاهده بعيني ينمو، ولن أصدق حين أتحول من مجرد كاتب بموارد محدودة إلى رأسمالي. منحته ما استطعت أن أوفره في خمس سنوات، وجلست أنتظر. وكانت مفاجأة قاتلة لي حين ذابت شركة الاستثمار فجأة، وذاب صاحبها، وعثرت في ما كان مكاتب لها ذات يوم، على معهد لتعليم الرقص الشرقي تديره امرأة.

دوَّنت عنوان العيادة الانعكاسية، في ذهني المضطرب، حتى

لا أنسى، إن احتجت يومًا لزيارتها لأي سبب، وخرجت من حي الزهرة وما حوله.

كانت وجهتي الآن من أغرب الوجهات التي يمكن أن يذهب إليها واحد مثلي. سأذهب إلى سوق عائشة الشعبي، في الطرف الشرقي من العاصمة، لأبحث عن «جوزف أفرنجي»، أحد أبناء الجنوب الذين لم ينفصلوا مع انفصال بلادهم، برغم هجرة أفراد أسرته كلهم إلى الوطن الجديد. وقد عمل ساعيًا في المدرسة التي كنت أعمل فيها مدرسًا، والآن متبطل بجدارة في سوق عائشة، يحاول أن يلج التجارة من أي باب يظنه مشرعًا ولا يستطيع أن يلج عالم السمسرة من النوافذ التي تنفتح وتنغلق، وبالكاد يحصل على فرصة ليمد رأسه. لقد أردت من أفرنجي أن يشارك في التحديثات الجديدة التي سأدخلها على حياتي. سأوظفه في بؤرة الصداع، أسلمه أمر نيشان حمزة كاملًا، ولا أظنه سيمانع، بل هي فرصة لا بأس بها، بالنسبة إليه، تتيح له شيئًا من الراحة، حتى لو كانت بصحبة مهووس مات في نص روائي، وهو الآن مهدد بالموت الحقيقي.

لقد تركت التدريس منذ أكثر من اثني عشر عامًا، وكان جوزف أفرنجي وقتها ولدًا نحيف الركبتين، يعشق الجري، وصيد العصافير المحبطة، ويتسلق البيوت أحيانًا ليلم التفاهات، وفي آخر مرَّة التقيته فيها، وكان ذلك قبل ستة أسابيع، أخبرني بأن زوجته «أشول» قد رحلت، وولده الذي سماه «مهوقني»؛ تيمنًا بشجرة لم يرها في حياته، وسمع باسمها عرضًا في أثناء تجواله الفقير في السوق، هرَّبته الزوجة إلى الوطن الجديد، والآن لا بد

أنه يأكل فتات الأرض في وطن لم يبلغ الحلم بعد، وليس بمستبعد أبدًا أن يموت بحمى الملاريا، أو مرض النوم، أو أي كارثة أخرى من الكوارث. ذلك اليوم طيَّبت خاطره بشدة، منحته خمسة جنيهات، وأخبرته، ومن النادر أن أُخبر أحدًا، أنني استعرت جزءًا من شخصيته في عمل كنت أكتبه منذ سنوات، ولم أكمله، وبات الآن من النصوص التي أُسميها مهملة. لم يبدُ أفرنجي سعيدًا، ولا مصابًا بخيبة أمل، ولا تملَّكه أي فضول ليعرف المزيد عن تلك الشخصية التي استعرتها منه. طلب مني عشرة جنيهات إضافية، وانصرف. كان قميصه بلا غسيل ولا كي، وصندله ممزقًا في أكثر من مكان.

٨

دخلنا حي «وادي الحكمة» بعد أكثر من ساعة ونصف من السير البطيء المتوعك في فوضى وزحام مروري لا يُطاق، وسائق حافلة مكتوب على ظهرها بخط مكسر: «كل الأيام واحدة يا حبي» تعدَّاني بإصرار مجنون، وسبَّني ببذاءة. متسولون بلا عدد غارقون في اللجة، لا يعبأون بالخطر. باعة الأقلام الرخيصة ومناديل الورق، وحقائب القماش المُتسخة، يلحون في البيع. والمشردون الذين تضج بهم شوارع العاصمة يحملون خرقًا ملوثة، يدحرجونها على زجاج السيارات، ويسألون عن أجر التنظيف.

كان النهار على وشك أن يتلاشى. ساعة أخرى، ويرابط الليل ضاخًّا آلامه وهواجسه، وأفرنجي عن يميني، مستثار، وقلق، ومتحمس لمهمة لا يعرفها جيدًا، ووصفتها له بلا تفاصيل كثيرة، وقد اخترع هو في تلك الساعات التي أنفقها بصحبتي في سوق عائشة، ومكتب سمسار العقارات نعمان، الذي استأجرت منه بيتًا صغيرًا متواضعًا ورخيص الثمن في أحد الأحياء، وفي رحلة السيارة، اخترع شخصيات متعددة، فيها حارس شخصي،

وممرضَ عند الضرورة، ورجل أمن متحفز ساعة الخطر. أراد أن يرتدي تلك الشخصيات كلها وهو يرعى نيشان حتى أتمكن من علاجه من الفصام أولًا، ومن ثَمَّ أبحث عن احتمالات إصابته بسرطان الغدد فيما بعد.

قصة تخاطر نيشان معي وإرساله رواية، لم أعد أهتم بها كثيرًا في الوقت الحالي على الأقل، ولا أريد أن أشغل بها ذهني وأبحث عن أسبابها، وكيفية حدوثها، وقد أرهقتني استعادتها منذ أمس.

ما أردته الآن وبجدية كبيرة، هو أن أعمل على المصير القاحل الذي كتبته، وأحاول أن أزينه ببعض الخضرة، حتى لو قاوم تزيينه، وأصر على أن يظل قاحلًا. أردت أن أؤدي ما ظننته واجبًا مستحقًا، في لحظة تنازل وخيم من كاتب روائي، منتشر في الوطن وغير الوطن، إلى مجرد إنسان عادي يمكن ببساطة أن يكنس حوش جيرانه لو وجده مُتسخًا، أو يحلب عنزة لامرأة مُسنة مرتعشة اليدين، أو يحمل طفلًا صغيرًا على ظهره ويعبر به شارعًا مدججًا بحوادث المرور. أظن ذلك لن يكون غريبًا عليَّ، أعني امتلاك الشخصية المحسنة، فقد فعلتها مرَّات من قبل. فقط هذه المرَّة، كان لا بد من تغيير نمط الحياة كلها، لتنجح الشخصية.

لقد فكرت في البداية أن أُسكن نيشان في بيتي، أن أُخلي له إحدى الغرفتين، حيث يوجد فرع للمكتبة الكبيرة، وأضع سريرين، واحدًا له، وآخر لجوزف أفرنجي، وبذلك أكون على مسافة خطوات معدودة من بؤرة الصداع. وغيَّرت رأيي في لحظة صفاء بعيدة عن التعاطف، حين وجدت الأمر لا يستحق كل

هذا. وما أدراني ما الذي سيحدث حين يسكن معي غريبان: أحدهما متورط في الجنون واحتمال الموت إذا صدقت الرواية، والآخر على ظهره تاريخ لا يخلو من الشوائب. لقد كتبت مرَّة، في إحدى رواياتي، عن مخططات التُّعساء حين تجعلهم حزبًا واحدًا، حين تُدخلهم السجن أو تضعهم في غرفة مغلقة وتتركهم يتآلفون، كما جعلت شخصيات متباينة، ما كانت ستلتقي في الواقع أبدًا، تعيش في بيت واحد لمدة شهر، وكانت النتيجة أن أكثر خيانات الأرض تفاقمًا ظهرت في ذلك البيت.

إذن قررت أن أستأجر ذلك المأوى الصغير، وهذا ما حدث، والذي سيحدث بعد ذلك هو أن ينتقل نيشان إليه وينتقل أفرنجي من خرقة القماش التي ينام عليها في كل ليلة، في سوق عائشة، وبذلك لو حدثت ثمة أزمة فهي ليست في بيتي، ولا تخصني. ولو ثار نيشان على أفرنجي فلن تصلني ثورته ولن تطيح بي بأي شكل من الأشكال.

كنت أخطط بعيدًا عن استشارة نيشان، مهتديًا بيقين كبير أن الذي استغاث في نص تخاطري لن يرفض يد المغيث حين تأتيه طائعة، فهو لم يكتفِ بالنَّص الذي أرسله، وجاء في لحظة وعي من أعراض الفصام، ليُسلِّمني نفسه، وحكى بتناغم وترتيب دقيق، حتى تلك اللحظة التي تشنج فيها وبدا في غاية الخطورة.

السؤال المهم في هذه المرحلة:

ألن يكون نيشان خطرًا على أفرنجي؟

أليس ثمة احتمال أن يقتله، وبذلك بدلًا من أن أجني حصاد الندم من رواية كتبتها، أجني حصاد الندم من دم سعيت ليُراق؟

وضحت ذلك لأفرنجي بتأنٍّ، وهو يجلس بجانبي ونحن ندخل «وادي الحكمة»، وأمرته بخشونة أن ينزع نظارة «البيرسول» القديمة المكسورة عن عينيه، حتى أرى ردة فعلهما وأُقيمها، فقال وهو يضحك، إن ذلك ليس معضلة على الإطلاق، وسوق عائشة القديم، الذي ينام على خرقة فيه، بعد أن يخلو من المتسوِّقين ويُغلق أبوابه، يمتلئ بالجن الذي يظهر آخر الليل، ويشرد الخفراء، وكم من مرَّة اشتبك في معارك مع أفراد شرسين منه، وانتصر، والآن هو صديق لجميع الأُسر المقيمة هناك، ولديه جنِّية رائعة الجمال اسمها «دلدونة»، تحبه، وتنام معه على الخرقة كل ليلة. أضاف وأنا أتوقف بالعربة أمام جمع من الناس لأسأل عن نيشان، وكنت قد أضعت بيته، أو بالأصح عشته التي يتخذها بيتًا، ولا أتذكر خريطتها الآن:

- هذا المجنون نيشان لن يكون أكثر توحشًا من الجني «شرلوك»، وقد قصصت أذنيه، ودمرت فحولته حين أراد أن يغوي صديقتي «دلدونة»!

ضحكت، وكنت في حاجة لتلك الضحكة، وتركت الأمور تسير على ما قررته. لن ألغي أو أعدل شيئًا، على الأقل حتى هذه اللحظة.

نزلنا من العربة، وكان التجمُّع أمام عدة أبسطة مفروشة في العراء، ورجال متباينو السحنات والأعمار يبيعون الخبز الأسود المُر، وبعض العظام الجرداء والخضراوات التالفة، وتبدو رائحة سمك متخثر منتشرة، وثمة ثلاث نساء يبعن الشاي والقهوة على مقربة من المكان. توقف كل شيء فجأة: نداءات البيع،

ومفاوضات الشراء المُلحة، والغزل الهمجي الذي كان يُبث من ألسنة همجية ويطارد نساء يافعات، وبدأ فضول حقيقي ووعر، يحيط بنا، ويشكل حلقة ضيقة. اقترب منا عدد من الأطفال يحملون حجارة صغيرة في أيديهم، ونبالًا لصيد العصافير، ولا ألمح شجرًا مخضرًّا أو غير مخضر، ينبغي أن يتوفر أولًا، لتتوفر العصافير. اقتربت بعض النساء منساقات وراء فضول أشد، وجاء رجال كانوا يشبهون نيشان بشدة، ويمكن بإضافة الهوس إلى سحناتهم، وتزويدهم بسجائر متقدة، ونسخ من «أمنيات الجوع»، أن يصبحوا جميعًا نيشان تلك الرواية.

كان ثمة رجل ملتحٍ في نحو الخمسين، نظيف بعض الشيء، في ثياب الدمور التي يلبسها، وعمامة الرأس البيضاء، قد اقترب أكثر. واجهني مباشرة، قال إن اسمه «حج البيت»، وهو إمام هذا المسجد الوحيد في الحي.

كان يشير إلى بقعة عن يساري ولم يكن ثمة مسجد حقيقي، هي قطعة خلاء مسورة بخطوط أفقية من الطوب والحصى، ويداخلها أبسطة قديمة من القماش، متناسلة الخيوط، وثمة منبر من الخشب القديم منصوب للخطابة كما يبدو. كان يسألني عن الغرض من وجودنا في حي «وادي الحكمة»، وإن كنا من مندوبي الحكومة المهمين، ونريد أن نشرح صدورهم بخبر مفرح، خصوصًا أنهم ينتظرون دخول الماء والكهرباء منذ زمن، ويطمحون إلى تمليكهم تلك الأراضي التي يسكنونها؟

بالطبع لم نكن، أنا وأفرنجي، عند حسن الظن. ولا أعتقد أن يد الحكومة التي تشرح النفوس، المقتصرة على أحياء بعينها،

ستمر هنا ذات يوم، والتي ستمر هي اليد الأخرى الباطشة، يد الشرطة الحديدية، حين تقتلع عشش الكرتون والصفيح، وتُلقي بقاطنيها إلى المجهول. أخبرت الرجل أننا لسنا من الحكومة، ولا نحمل أي خبر، فقط نبحث عن نيشان حمزة نيشان، الذي يقيم هنا، لأمر ضروري.

- نيشان حمزة نيشان؟ هذا غريب! لم يسأل عنه أحد منذ زمن طويل! هل تعرفانه؟ ماذا تريدان منه؟

كان يسأل وقد بدا مستغربًا، والجمع الذي ازداد تماسكه من حولنا مستغرب، وأجزم أن هياكل البيوت الناقصة، والعشش الصفيح، وفضلات البطون المتورمة في الخلاء، في حي بلا صرف صحي، مستغربة أيضًا. لا أحد في الحقيقة يسأل عن مهووس، موسوم بالفقر في حي فقير. لكن الروائي الذي التقط رسالته التخاطرية بجدارة، وأماته بعد سبعين صفحة من الصفحة المثنية، يسأل تحت ضغط تأنيب الضمير. لقد كان الضمير هو الذي يسأل، لا الروائي.

- نريد علاجه من الفصام.

كنت أقول وأبدو في وقفتي جادًا إلى أقصى حد، يداي خلف ظهري، وعيناي في عيني الرجل، بينما جوزف أفرنجي اتخذ وضع الصعلكة الكلاسيكي، نزع نظارة «البيرسول» المتآكلة، وبدأ يحدق بعينين وقحتين في فتاة سمراء في نحو العشرين، تبدو من أهل الجنوب، منغرسة في الفضول العام.

- علاجه؟

كان «حج البيت» يتساءل، ولا أبدو مهتمًا باسمه الغريب،

ولو كان الظرف غير هذا لاهتممت بشدة، وفكرت في استخدامه اسمًا لشخصية تشبهه. فلم أسمع من قبل عن رجل اسمه «حج البيت»، ولا خطر ببالي أن ثمة مَن يحمل هذا الاسم، تمامًا كما حصل حين كتبت نيشان وأنا أعمى ومفتون بحلاوة اكتشاف لم أكتشفه حقيقة. كان صوته الآن قد ضج، رفع يديه عاليًا، وبانت شعيرات إبطيه بيضاء ومنتوفة، وبدا كأنه في منبر:

- ولماذا تعالجونه؟ ومقابل ماذا؟ لقد جُنت سهيلة أحمدو قبله بسنوات، وأكلت لحم الكلاب والقطط، ولم يعالجها أحد. ونورين حميدين الخياط الشهم، جُن ومشى في الشوارع عاريًا، يهزهز عورته، ولم يعالجه أحد. وهذا الشاب مرتجى كان يدرس في الجامعة وجُن، والآن يؤكد بثقة بأنه «ويكيبيديا»، الموسوعة الحرة، ولديه في رأسه مليار صفحة، كتب عليها العالم كله، ولم نسمع أن هناك من سعى لعلاجه.

كان ثمة شاب حافي القدمين، بقميص رمادي بلا أزرار ونصف سروال أبيض متآكل الأطراف، يروح ويجيء في المكان يتحدث بلا توقف، ورأسه باتجاه الأرض. وكان يعرض في تلك اللحظة صفحة عشوائية من «ويكيبيديا» رأسه المختل، تخص نسنوسة آكلة لحوم البشر، وقاهرة جيش الرومان العظيم في موقعة «وادي الحكمة». حاذى مرتجى أفرنجي، ومن دون أن يرفع عينيه عن الأرض، توقف عن سرد سيرة نسنوسة، وأقحم رجل الجنوب الذي ما زال يغازل الفتاة السمراء، في صفحة خاصة بالعشق والعشاق، ابتدأت قبل عام من الميلاد.

داهمتني للحظة شخصيةِ الكاتب، واعتبرت هذا الحي

الطرفي، واحدًا من كنوز الكتابة، ربما أعود إليه مجددًا وأُنشئ فيه عشة من الصفيح، أقيم فيها زمنًا وأكتب الحي كله.

لم يكن ذلك غريبًا عني، وتعودت خوض المغامرات بلا نقاش حين يلسعني وهج الكتابة، أو ضوؤها الأخضر. لقد أقمت من قبل في حي مشابه، ودخلت السجن، واشتركت مع واحدة اسمها آمنة سرمدو، في تقطير الخمور البلدية من الذرة والتمر، حين أردت توظيف بائعة خمر بلدي في إحدى الروايات.

لم تبقَ شخصية الكاتب في ذهني طويلًا للأسف، ألغت نفسها بنفسها و«حج البيت» ما زال منبريًّا، يتساءل:

- لم تقل لي ما هو سبب اهتمامكم بنيشان، وأولًا من أنتم؟ نيشان نعرفه، ونعرف جنونه الذي يأتي ويذهب، وحتى خطورته نعرفها، وليست مشكلة كبيرة بالنسبة إلينا. أعينونا لنعيش أفضل من هذه المعيشة، أو اتركونا في سلام!

كنت على وشك مقاطعته، وتوضيح الأمر لرجل بدا لي أنه ربما يفهم دوافعي لو بينت أكثر، حين هتف أحدهم فجأة، وكان شيخًا غزير الأعوام، يلتف بإزار أخضر مرقع، ويستند على كتف طفلة في نحو السابعة، تبدو حفيدته أو حفيدة أي شيخ آخر في سنه، وأعرف أنه في مثل هذه الأحياء لا تقتصر الأبوة على الأب الفعلي، كل الرجال آباء لأبنائهم وأبناء غيرهم، وكل الأطفال أبناء للجميع:

- الله أكبر. يسقط المفسدون. يسقط الخونة. العزة والكرامة لشعب الوطن.

كان هتافًا في غير موضعه، ومن عجوز في سن الظل

عبد القوي لكنه لا يملك حكمة الظل ولا موهبته. باختصار كان هتافًا خرفًا، سيجر وراءه تبعات ما كنت أريدها أو أتوقعها وأنا أتتبع خطى نيشان حمزة. فلا جئنا مفسدين، ولا نحن أعداء لشعب الوطن، وعدو البسطاء لا يأتي بنفسه بحثًا عن رجل بسيط.

فكرت أن الورطة التي أنا داخلها ذات حيل مبالغ فيها، وتتمدد في كل لحظة، بسعار جديد.

لماذا أرخيت أذني لنيشان حمزة؟ لماذا صحبته مغمض العينين ومرتبكًا، إلى بيت أمي الروحية ملكة الدار، وتركته يحكي؟ لماذا لم أكن كاتبًا ملعونًا يخترع أبراجه العاجية، يخترع حراسه المتغطرسين ويطرده من دون أن يعرف أي شيء عن أي شيء؟ كنت أستطيع أن أوقِّع له الرواية في نادي «الرفاق»، وأضحك أو أحزن للحظات، وأفر إلى عربتي، متجاوزًا انتظاره، ولن يعثر عليَّ إلا وأنا وسط آخرين، سيلغونه من حياتي. حقيقة كنت أستطيع أن ألغيه ببساطة، ولم أفعل!

- الله أكبر، يسقط خونة الشعب.

كانت الأصوات تخنقنا والحلقة تضيق بمكر من حولنا و«حج البيت» الإمام، طائعًا أو مختارًا، انحاز إلى صفنا أخيرًا، وتمدد بأعلى صوت يملكه لإيقاف الصخب، وتوضيح الأمر، بأننا لا نقصد شرًّا بأحد في «وادي الحكمة»، وإنما من فاعلي الخير، وجئنا بالفعل لعلاج أحد أبناء الحي، وهو ما لم يقله في البداية حين كان ثمة صفاء متوفر، كان بإمكانه أن يستمر صفاء حتى النهاية، ولم يتركه ليستمر.

سكنت لغة العداء أخيرًا استجابة لنداء الإمام، وبدأت الحلقة

تتسع مرَّة أخرى، عاد البيع في الخرق المفروشة يستعر والشراء يستعر أيضًا، وأصر «حج البيت» الإمام، أن يصحبنا بنفسه، في رحلة البحث عن نيشان داخل الحي.

لم نعثر على نيشان في عشته، وكانت خاوية إلا من حصير تالف ووسادة مُتسخة من الدمور، تبرز من أحشائها بقايا قطن مُتسخ هو الآخر، وعدة أثواب وعمائم موزعة هنا وهناك، وثمة كتب كثيرة، لا بد أنها لمواد القانون الذي تعطَّلت دراسته. وانتبهت إلى أن ثمة دمى من القماش، موجودة أيضًا، وارتجفت.

لم نعثر عليه أيضًا في كل البيوت التي تحت الإنشاء وتضج بالعمال، وكان يعمل في البناء أحيانًا بأجر يومي، ينقطع بانقطاعه عن العمل.

كان «حج البيت» مجتهدًا، ينزل من العربة كلما توقفت، يدخل بيتًا ويخرج، واضطر في النهاية أن يذهب بنا إلى جانب طرفي من الحي، حيث سبعة بيوت من الطين، قال إنها ملوثة وسيئة السُّمعة، تسكنها نساء من الأحباش، ولا يدري إن كان نيشان يطرقها أم لا، وأيضًا لم يكن طريدتنا موجودًا في تلك البيوت.

أخيرًا عثرنا عليه عند خط مهمل من خطوط السكة الحديد، كان فيما مضى فعَّالًا في نقل الركاب والبضائع بين الميناء والعاصمة، وأذابت شوارع الأسفلت الحديثة السريعة فاعليته.

كان نيشان في واحد من أقسى مواقف الفصام، يرتدي ثياب جنرال ممزقة، ومعه سبعة صبيان في سن المراهقة، يُوقفهم في طابور عقابي كما يبدو، بوصفهم جنودًا متمردين فروا من معركة،

وكانوا يقفون وتبدو السخرية واضحة حتى في وقفتهم التي جعلوها وقفة مُطيعة.

فجأة ونحن نقترب، انفلت نيشان من انضباط العسكريين، هجم على أحد الصبيان، ألقاه على الأرض، وبرك على بطنه، كان يصرخ والصبي يصرخ، والساخرون ما عادوا ساخرين. اقتربنا بسرعة، وتعاونا جميعًا بمن فينا جوزف أفرنجي، و«حج البيت» والصبية المراهقون، على رفعه عن بطن الصبي. ألقيناه في المقعد الخلفي للعربة، وكانت لفتة بارعة من أفرنجي، حين أخرج من تحت مقعده حبلًا مفتولًا بوعي، قيَّد به المتهيج في يديه وقدميه، وهو يردد:

- كنت أعرف أنني سأحتاجك يا حبل. شكرًا لك.

استسلم نيشان لقدر لا يعرفه، ولم يبدُ، في تلك اللحظات المتأزمة، شخصًا جديرًا ببث إيحاء أو تخاطر من أي نوع. لم يبدُ صيادًا محتملًا للحب، يأسر ممرضة متعلمة، ولم يبدُ حتى مجرد إنسان عادي، يتسكع في حي «وادي الحكمة»، ويشتري أغراضه من تلك الأبسطة الفقيرة. سألت «حج البيت»، ونحن نتهيأ للمغادرة بصيدنا العكر:

- أليس ثمة أهل أو أقارب لنيشان هنا؟

رد:

- لا، ليس هنا، لكن قطعًا في مكان آخر. كان له قريب هنا اسمه زكريا يعمل سائق شاحنة لنقل الطوب والحصى لمواقع البناء، واختفى العام الماضي، وقيل تزوَّج من فتاة إثيوبية، وذهب معها إلى بلادها.

سائق شاحنة من أقاربه؟ يا إلهي، لقد كتبته أيضًا في «أمنيات الجوع»، إنه السائق الذي كان يُهدِّئه حين يتهيج، ويقيده بالحبال حين يشم أي خطورة فيه.

سألني:

- إلى أين تأخذونه الآن؟

- إلى مستشفى خاص لعلاج الأمراض العقلية.

قلت وانطلقنا.

كان النهار قد تلاشى بالفعل، وثمة ليل موحش وكئيب، يستعد لفرض سيطرته على «وادي الحكمة».

٩

كنت أجلس في مكتب الدكتور شاكر، صاحب مستشفى «النخيل الاستثماري»، لعلاج الأمراض العقلية، وقد طارت ثلاثة أزرار من قميصي، وتبعثر شعري، بسبب هياج نيشان، وكانت تنز مني رائحة العرق كثيفة ومخجلة، وأتعجل الوقت كي أعود إلى بيتي لأُرتب شخصيتي، وأعيد إليها ما تبخر من هيبة، في صراع لم يكن من العدل أن أصبح طرفًا فيه، ولا يربطني به سوى تلك القصة السخيفة التي هي «أمنيات الجوع».

لقد بت أكره تلك الرواية بشدة، أتمنى لو لم تبع أي نسخة إضافية، وتوقف حد انتشارها عند تلك النُّسخ التي بِيعت بالفعل من قبل. ولو أنني أمتلك طريقة لألمها من مراكز التوزيع فسوف أفعل. يقول الظل بكل ثقة وتكبر: إن نيشان هو الذي أرسلها إليَّ، وتلاعب في كل أجزائها، وأنا مجرد متلقٍّ فقط، تلقيت الكارثة وأججتها أكثر. لكن الظل أغفل أشياء عدة، أغفل أسلوبي الذي لم يختلف في قصة عن أخرى، أغفل تقنيتي التي أزعم أنني اخترعتها، تقنية التلاعب بالمقاطع والأزمنة، ووضع خطوة في مكان أخرى تسبقها، وتأخير مفردة على حساب مفردة، كلها من

ألاعيبي ولا أظنها وردت هكذا في النَّص التخاطري. هو مقتنع بقصته مع القسيس «ماثيو»، إن كانت قصة ليست من اختراعه، وأنا ما زلت مزعزعًا، بلا أي قرار، حكيمًا كان أو مخطئًا.

الذي حدث أنني كتبت الواقع كما حدث، وكتبت المستقبل كما أريده أن يحدث، ولو كان نيشان هو صاحب القصة كلها، لما بانت شبهة لسرطان الغدد الذي سيُميته. هو خائف، ولا يريد الموت، هذا واضح جدًّا.

تنبهت إلى أنني أحلل أشياء لا يمكن تحليلها، أرهق ذهني بلا معنى، والطبيب النفسي أمامي متأنق، ووسيم إلى حد ما برغم تقدُّم العمر، ويصلح في نظري مغنيًا جذابًا. في الحقيقة كان الدكتور شاكر، وهو صديق قديم، وزميل من المرحلة الثانوية، مُلحنًا للأغنيات، ومغنيًا أحيانًا، ورسام كاريكاتير ساخرًا، لا يعرف موهبته تلك إلا القليلون.

حين نقلنا نيشان من «وادي الحكمة» إلى المستشفى، لم يكن في حالة ذهنية تسمح بإسكانه بيتًا في هذه الليلة، وعرضه على متخصص في الصباح. ونحن نحمله في العربة كان متورمًا، وبذيئًا إلى حد ما، يقاوم قيد الحبال القوي لينفلت، ونجح إلى حد ما، في إخافة أفرنجي، وزحزحة قناعاته في إمكانية حراسته والاعتناء به بأجر.

شاهدت أفرنجي، قاهر الجن كما يقول، وعشيق الجنية «دلدونة»، يتلفت في فزع، يحك لحيته الهزيلة بأظفار مُتسخة. سمعته يخبرني بضرورة الإسراع، وفي تمتمة خاصة به، وبصوت شبه مسموع، كان يثني على تلك الخرقة الممزقة التي ظل

يتوسدها في سوق عائشة كل ليلة، حتى عثرت عليه ووظفته في ذلك الهاجس.

أفرنجي لن يقبل بالمهمة كما بدا لي من سلوكه، ولن أضغط على مصارينه أكثر، حتى لا يفر من صُحبتي وكنت أحتاج إليه في خدمات كثيرة. ما طرأ على بالي في تلك اللحظة هو أن أمنحه البيت المؤجَّر، وأُخبره صراحة بأنه سيُكون لنيشان حالما يُشفى من مرضه.

حين استأجرت خدمات أفرنجي في البداية، لم أخبره مُطلقًا بقصة التخاطر التي هزتني وقادتني للاهتمام بنيشان حمزة، لأنني أعرف تمامًا أنه لن يستوعب غموضًا ملعونًا كهذا، ولن يحاول استيعابه. هو يعرفني مدرسًا قديمًا لمادة الرياضيات، في مدرسة كان يعمل فيها ساعيًا، وتركها كما تركتها. يعرفني كاتبًا بلا وظيفة رسمية في الوقت الحالي، ولم تسمح له ثقافته المحدودة، ومعرفته الضالة باللغة التي أكتب بها، أن يقرأني، ولا أظنه سيقرأني حتى لو امتلك الثقافة واللغة كاملة.

قلت له في حينها إنني أقوم بواجب إنساني بحت، لشخص أعرف أهله، ولم يطرح هو سوى الأسئلة الخاصة بمرض الرجل وشخصيته المتقلِّبة.

لقد وصلنا بنيشان، أو «ن ح ن» كما سمَّيته في ذهني، لأن اسمه الطويل العريض بدأ يرهقني، ويجلب الكآبة حين أنطقه أو حتى أفكر فيه، إلى المستشفى. كان ما زال مُورمًا بالأعراض، ما زال يقاوم حبل أفرنجي القوي، يشتم عسكريًّا متمردًا في جيشه النظامي الذي كوَّنه عند خط السكة الحديد المهجور، وذبابة

صعلوكة لا تتركه ينام، وولدًا ملعونًا اسمه «عدولة» يناديه بصوت أنثوي، ولا يتوقف عن النداء. لقد لفت أكثر الأنظار خمولًا، ونحن نعبر به الشوارع أو نتوقف في شارات المرور الحمراء. كلمت الدكتور شاكر هاتفيًا بمأساته ومأساتي ونحن نعبر الطرق، وكان شهمًا في فهم المأساة عند حد الفصام العقلي، ولم يُرد أن يخوض معي نقاشًا في مسألة التخاطر، إما لأنها خرافة في رأيه، أو لأنه لا يستوعبها.

نيشان قُوبل عند باب المستشفى، بما يُقابل به المذهولون عادة. قيدوه بأحزمة من الجلد القوي إلى محفة نظيفة، وحملوه إلى غرفة منعزلة في المستشفى، لا يسمح نظامها الأمني الصعب بمرور ذبابة تافهة، من دون أن تحمل إذنًا بالمرور.

شاهدته ملقى على سرير أبيض من الحديد المطلي، ومحاليل مُعلَّقة على ساعديه، أو تركد على طاولة بجانبه، في انتظار أن تُعلَّق. شاهدته هادئًا ونائمًا، وما عاد ثمة مخاط أرعن يسيل من أنفه، ولا ريالة مهووسة تتلاقح في فمه. ولو كان ثمة حلم يداعبه الآن فلا بد أن يكون حلمًا ورديًا بطلته رنيم المعشوقة المهاجرة، أو محكمة ضاجة بالمحكومين والشهود يدير جلساتها بوصفه قاضيًا.

منحت جوزف أفرنجي الذي علق نظارة «البيرسول» على جيب قميصه، بعد أن دخل الليل، وكان يتحاوم في المستشفى، يبحث عن ممرضات منفلتات من بنات الجنوب، يعتقلهن في غزل عابر، كما أخبرني، منحته عدة جنيهات، وخيَّرته بين أن يذهب إلى البيت الصغير المستأجر لينام فيه، وبين سوق عائشة حيث

اعتاد الحياة والتشرد، واحتضان فتاة الجن «دلدونة»، فاختار البيت، لا لأنه الأفضل كما قال، ولكن لأن صاحبته الجنِّية غائبة هذه الأيام، فقد سافرت مع أهلها إلى بقعة في الصحراء اعتادوا التصييف فيها كل عام.

أفرنجي هذا شخصية فذة كما صنَّفته، ويصلح بلغته المكسرة، وتلك الأساطير التي يرويها بلا ضحكة أو ابتسامة، أن يسيطر وحده على نص كبير، وقد ذكرت أنني استعرت شخصيته ذات يوم، لكنها دُفنت، مع الأسف، في نص مهمل لن يرى النور كما أعتقد. كنت سعيدًا بإعادة اكتشافه، وأوحت إليَّ تسميته ولدًا على اسم شجرة التقطته مصادفة في السوق، كثيرًا من الفقرات التي أستطيع استخدامها في أعمال قادمة. فقط الوقت ليس وقت كتابة، ومعضلة «ن ح ن» ممددة تنتظر أن يطويها أحد.

سألت الدكتور شاكر، وقد أكمل حشو غليونه الراقي بالتبغ، من دون أن يشعله، عن تقديره الشخصي لحالة نيشان، وهل بالإمكان أن يُشفى ويصبح قاضيًا في المستقبل كما كان يأمل.

كنت أبحث عن سيجارة أشعلها، ولا أجد السجائر في جيبي، بينما الطبيب وضع الغليون على الطاولة، وقال بلا أي تنظير معتاد في مثل هذه المواقف:

- صحيح أن فصامه موسمي ومتقطع، ويمكن أن تزول الأعراض كلها بتناول علاج مثل «الريسبريدول» أو «الهالوبيريدول»، بانتظام، لكنه لن يصلح قاضيًا، ولا حاجبًا لقاضٍ، ولا حتى ساعيًا متواضعًا في محكمة.

كانت جملته قاتلة لطموحِ نيشان، هكذا فكرت، ولم تكن

مسألة دراسته القانون مهمة في نظري الآن، وأمامه زمن طويل ليعود إنسانًا أولًا، ولينجو من الموت الذي ينتظره في آخر الرواية ثانيًا.

في بيتي وحين دخلته بعد ذلك، تذكرت أنني كنت منغمسًا في أحداث شريرة متلاحقة، ولم أنم ولو لحظات منذ أول أمس. اكتشفت أن هاتفي المحمول كان مغلقًا منذ خرجت بصحبة نيشان، من بيت أمي الروحية، ملكة الدار، ولم أتذكر تشغيله إلا في تلك الدقائق التي حادثت فيها الدكتور شاكر، وأغلقته بعد ذلك، ولا بد أن العشرات من المكالمات والرسائل طرقته، ولن يعرف المتصلون، أو مرسلو الرسائل، ماذا حدث لي وماذا سيحدث.

مؤكد تساءل عدد من أصدقائي عن سر إغلاقي لهاتفي، ومؤكد ظن بعضهم أنني سافرت مرَّة أخرى، قبل أن أضع رجلي على أرض الوطن أكثر من يوم، ومن دون أن أُخبر أحدًا. وحين وصلت في تفكيري إلى أن بعضهم ربما ظنوني ميتًا مُتخثرًا في بيتي، وسيحاولون العثور عليَّ بأي طريقة متاحة، فتحت هاتفي، وكما توقعت داهمتني رنات لأكثر من عشرين رسالة كانت تنتظر، كان معظمها من زملاء مثقفين، وعدتهم بملاقاتهم اليوم في مقهى «المزيرة» الشعبي، حيث نلتقي في الغالب، ولم أفعل. كانت ثمة رسالة من صحفي في صحيفة محلية أعطيته موعدًا نهار اليوم لحديث طويل عن روايتي المكروهة «أمنيات الجوع»، ولم أفِ بوعدي، ولا أظنني سأفي بأي وعد مستقبلي، فيما يتعلق بتلك الرواية.

كانت نجمة قد كتبت إليَّ أيضًا، ووددت لو كلمتها بمجرد

عثوري على الرسالة. لم تقل ما الأمر، وتركته هكذا مبهمًا. لكن الرسالة، التي شدتني أكثر، كانت من ليندا، ابنة عبد القوي الظل، أو «ظل الظل» كما كنت أُسميها في سري. ليندا هذه فتاة غريبة، لم أرها في حياتي قَطُّ، بالرغم من وجودي في بيت والدها عشرات المرَّات، ولسنوات طويلة، وحتى قبل أن تولد. لم أرها في محاضرة، ولا فعالية ثقافية، ولا مسرحية من مسرحيات والدها، ولا في السوق، أو أي زقاق معتم أو منير من أزقة الدنيا. وقد كان الظل يتحدث عنها بافتتان، في أحيان كثيرة، حين يأتي ذكرها، أو يُقحم هو ذكرها عرضًا في الحديث، وهو مَن أعطاها رقم هاتفي المحمول لتعقد معي تلك الصداقة الهاتفية القوية، تحدثني عن أعمال قرأتها لكُتاب مختلفين، وكوَّنت رأيًا فيها، عن أعمالي كلها، التي قرأتها باستمتاع كما تقول، وعن مشاريع لها، من ضمنها رواية سمَّتها «عجلتان وبقايا جسد»، تعكف على كتابتها منذ عامين، وستنشرها ذات يوم. لم تخبرني عن مضمون تلك الرواية، ولا أنا سألتها أبدًا، ودعوتها مرَّات عدة لمحاضرات أُلقيها، أو احتفالات أُشارك فيها، ولم تلب أي دعوة، أو تورد سببًا مقنعًا لعدم الظهور.

كان صوتها في الهاتف مميزًا جدًّا، صوت فتاة حالمة، أو تتحدث من بقايا حلم تعض عليه ولا تود إفلاته. ثمة جمل طرية ناعمة، كلمات نصفها واضح، ونصفها غامض بعض الشيء، ثمة لهاث خفيف، ونصف ضحكة ترن بين الحيَن والآخر.

حقيقةً لقد تلاعبت ليندا الظل بخيالي مرَّات عديدة، وسعيت لرسمها في الواقع، متبعًا معطياتها، وخرجت بلوحة ذهنية فيها

فتاة في العشرين أو تجاور العشرين، نحيفة، مستيقظة العينين، ناعمة الجلد، وذات شعر أسود غزير مزروع بالأشرطة الملونة، ورأسها يتمايل بتناغم عند المشي. تملكني فضول غريب للتحقق من لوحتي، وقلت للظل مرَّة ونحن نجلس في بيته مساء، وجعلت قولي كأنه يخرج ساذجًا بلا تخطيط:

- ليندا مثقفة كبيرة أستاذي، تقرأ كل ما أكتبه باستمرار. وتحكي لي رأيها بصراحة حتى في أعمال كُتاب آخرين، لماذا لا تشارك في أنشطتنا الثقافية، أو على الأقل تأتي مرَّة، تجلس معنا، وتشاركنا الحديث؟

رد مباشرة وأنا أرى وجهه يتلوَّن بتغير طفيف، كأنه استاء، أو أحس ببوادر مغص:

- هذا جميل أيها الكاتب، ليندا بالفعل مثقفة واعية، ومشكلتها الكبرى أنها لا تستطيع مواجهة الآخرين.

ثم غرس عينيه الضيقتين في وجهي، وأضاف:

- يكفي أنها تتحدث هاتفيًّا معك، أليس كذلك؟ أنت تعرف رأيها في أعمالك، وأعمال غيرك، ولا أظنك تنوي الزواج منها، أليس كذلك؟

فكرت أنني ربما أحدثت مشكلة ما بسؤالي عن ليندا، وأُصبت بالحرج، وحوَّلت اتجاه الحديث إلى وجهة أخرى، كنت أعرف أن الظل يستسيغها، ومؤكد ستمحو المشكلة أو الحرج، ذلك حين بدأت أتحدث عن مسرحيته «يوم في حديقة لانتيمارو»، وكانت فانتازيا مسرحية رائعة عن يوم متخيل برفقة ديناصور، في حديقة اسمها «لانتيمارو»، خارج حدود الكرة الأرضية.

قلت إن رسالة ليندا الهاتفية، شدتني كثيرًا، وكانت طويلة ومكتوبة بجمل منتقاة، تتحدث عن «أمنيات الجوع» التي أنهت قراءتها للتو، حديثًا مفرحًا، وتسألني في النهاية: هل كان من الضروري أن تلهو بنيشان حمزة كل هذا اللهو المعذب؟ كان بإمكانك أن ترسل إليه رصاصة غادرة من مجهول تصيبه في عنقه، أو تدهسه بعربة مسرعة، وهو يعبر شارعًا مرصوفًا بالموت!

في مقال لي عن لهفة القراءة، نشرته قبل عام ونصف في إحدى الصحف، وفي موقع إلكتروني، أكتب له أحيانًا، تحدثت عن آلية صُنع الرواية، وآلية التلقي لها. قلت إن الكاتب له حدوده التي يرسمها بمراقبين نزيهين من بينهم موهبته، ومعرفته، وخبرته، ورقيب داخلي يتكون في ذهنه، وعليه، فهو يكتب وعيناه نصب لا شيء، وإن حدث وداخت أفكاره، أو سقطت لأي سبب من الأسباب، فلن تكون عثرة أبدًا، هو يراقب سقوطها، وبصره ممتد للأمام، محاولًا إيقاف أفكار أخرى على قدميها. ونتيجة لذلك، لن يموت نيشان حمزة، أو «ن ح ن»، إلا بسرطان الغدد، وأي وسيلة أخرى يقترحها القارئ، هي من جراء تعاطف لحظي، وليس من حفر عميق في تربة الكتابة.

ليندا قارئة جيدة، هذا لا شك فيه، ولا بد أغاظتها تبجحات الجُمل الأدبية، وهي ترسم موت البطل، ولا بد روَّعتها النهاية غير المتوقعة لمريض لن يموت بمرض الفصام، وبناء على ذلك جاء اقتراحها بعيدًا جدًّا.

رددت على رسالتها بسرعة وأعرف أنها ساهرة تنتظر ردي. أوضحت لها رأيي، وأحلتها لمقالي القديم، لتفهم أكثر.

رسالة أخرى أضحكتني كثيرًا، وكانت من جوزف أفرنجي الذي لا بد عبأ هاتفه بالرصيد، حين منحته شيئًا من المال، وقد كتبها بإنجليزية فظة:

My lover Daldona return back from the desert. She discovered the rented house and now with me in the bed

والآن أضيف لما أكدته دائمًا، فكلما شاهدت أفرنجي، أو استمعت إليه مباشرة، أو تلقيت رسائله وصوته في الهاتف، أيقنت بأنني أملك رواية حية، تتناسل بتروٍّ في حياتي، وستخرج إلى الواقع ذات يوم.

كانت آخر رسالة جادة انتبهت لها، من صديق يعمل في قسم البطاقات الشخصية بوزارة الداخلية، وكنت أرسلت إليه عن طريق البريد الإلكتروني معلومات سريعة عن نيشان، اليوم باكرًا جدًّا، وقبل أن أذهب إلى بيت عبد القوي الظل، وكان رده يؤكد أن بيانات الرجل مطابقة، وقد صدرت تلك البطاقة التي يحملها بالفعل قبل ست سنوات.

الآن ما عاد لي ما أفعله سوى متابعة المفصوم في مستشفى النخيل، ومتابعة جزء من حياتي، التي أغفلتها في اليومين الماضيين. أغلقت الهاتف مرَّة أخرى من دون أن أخاطب نجمة لأعرف ماذا تريد، ودخلت أصحب أرقي إلى غرفة نومي، حيث تلاشى الأرق شيئًا فشيئًا، ووجدتني قد نمت بعمق، واستيقظت في الصباح، بلا دوار ولا تفكير، وأنا أشم رائحة طبخ على النار، وأصوات مكنسة كهربائية تتأرجح في أرضية البيت، وكانت أم سلمة موجودة، ترتب الحياة القاسية لأعزب مثلي بجدارة.

جلست على طاولتي، فتحت جهاز الكمبيوتر، ودخلت إلى موقع «فيس بوك»، لأرى ماذا استجد في غيبتي القصيرة، ودائمًا ما يستجد شيء حين أغيب. طالعت التعقيب على كلمة تخاطر التي كتبتها في آخر دخول لي، بلا اهتمام كبير. وعثرت في تصفحي السريع على صور جديدة لنجمة وضعتها في الصباح، وقصيدة غزل مكسرة وماسخة، من أحدهم، ويُسمي نفسه «القمر المطعون»، وفقرة لي عن صعود التيارات الدينية إلى السُّلطة، أسبابها ومضاعفاتها، وردت في استطلاع للرأي لإحدى الصحف.

كانت صفحة الأخت الفاضلة، أو الصفحة الكنز كما أُسميها، عامرة بالمطبات، وقد ازداد عدد روادها عن أمس بنسبة كبيرة. المسيخ الدجال يبكي لتأخر نهاية الدنيا. شاحن الموبايل يشكو من شُح الكهرباء. الداعية الشيخ مشتاق مختنق بقصيدة غزلية جديدة لن ينشرها على الملأ، ويسأل مجددًا عن بريد إلكتروني، وقد كتب من سمَّى نفسه «ميت»: إنا لله وإنا إليه راجعون.

كان أصدقاء الفاضلة يقاتلون أنفسهم بضراوة، والفاضلة إما تظهر في شكل نقطة أو علامة استفهام رقيقة، وإما لا تظهر على الإطلاق، وقد استبدلت بصورة النقاب الأسود، واحدة أخرى ذات نقاب رمادي.

كان بريدي الخاص متخمًا بالرسائل، ولم أفتحه، أخاف أن تكون ثمة ورطات جديدة، ولديَّ واحدة لم أستطع الفكاك من تبعاتها حتى الآن.

أغلقت الكمبيوتر، وأمسكت بـ«أمنيات الجوع»، أسرعت إلى الصفحة الثانية مباشرة بعد الصفحة المطوية، قرأت فيها عن

مستشفى نفسي، وحقن منوِّمة، ومحاليل تغص بالسكينة، مُعلَّقة في الوريد، وياقوتة الممرضة التي تعمل في المستشفى، لا تملك إلا أن تبكي وهي تعمل، على مريض التصقت به بود منذ عام، وما زالت ملتصقة به، ولا تعرف إن كان ذلك حبًّا حقيقيًّا أم مجرد تورم إنساني انتفخت به ولا تستطيع التخلص منه. قرأت عن سيل من المشاعر كان يتدفق في العنبر المُتسخ، وعدد من المرضى بمختلف أنواع الذهول، يصيحون ويصرخون ويبكون ويضحكون، ويسعون، في لحظات الإفاقة النادرة، إلى أن ينفلتوا من المراقبة المكثفة، ليمنحوا العلل الهمجية حرية أن تتلاقح في الشوارع بلا حساب.

انتهت الصفحة، ونيشان قد بدأ يصحو، ويسترد قليلًا من الوعي، وأصبح بمقدوره أن يتذكر حي «وادي الحكمة»، ووجه ممرضته الذي يهواه، وأن تتكوَّن في ذهنه اعتذاراته المألوفة التي قطعًا سيُسمعها لكل مَن ناله رذاذ من الهيجان، في أي منطقة اهتاج فيها.

بالطبع كان ثمة واقع، عن نوبة الهياج، ورقدة المستشفى. لكن لا توجد تلك الياقوتة التي هاجرت، وتغيَّرت إلى رنيم. وأيضًا لم يكن ثمة اتساخ أو اكتظاظ بالعلل في المكان. كان نيشان في الواقع يرقد في حجرة نظيفة، في مستشفى استثماري، قطعًا أتكفل بمصاريفه كلها، فحتى لو كان الدكتور شاكر صديقًا، ولو كان مسامحًا جدًّا، ومتعاطفًا، تبقى لغة الاستثمار التي تندحر أمامها كل اللغات الأخرى.

لم يكن في نيتي أن أزور نيشان في هذا اليوم، ولا أي يوم

آخر، إلا إذا جدَّ شيء في حالته. وقد أقنعني ما بذلته في حقه، حتى هذه اللحظة، أنني لست بحاجة لتلك الزيارة، وكل الذي سأسعى لأفعله مستقبلًا هو أن أنتظر شفاءه الكامل وخروجه من المستشفى، وأسعى للتأكد من موضوع سرطان الغدد، إن كان موجودًا في جسده بالفعل، أم أن النَّص الواقعي تعدَّل في هذه الناحية أيضًا، كما تعدَّلت فقرات كثيرة منه.

أحسست أن حياتي اختلَّت بصورة مؤسفة، وما حدث في يومين فقط، لم يحدث ولو قليل منه في كل تلك السنوات الناضجة من حياتي التي قضيت جزءًا منها أدرس الرياضيات، وجزءًا أنتحر بكتابة تلك الروايات السخيفة. ولو سألت نفسي الآن عن الربح الحقيقي الذي يمكن أن تحققه رواية مثل «أمنيات الجوع»، بجانب خسائرها العظيمة، لما عثرت على أي ربح. أوشكت أن أهتاج أنا أيضًا، وأمزِّق نُسختيَّ المتبقيتين من الرواية، وتماسكت وإحداهما على وشك أن تتمزق.

لن يجعلني مأزق كهذا أتبرَّأ من كتابتي بهذه السهولة، وقد تبرَّأت بسببها من وظيفة ليست محترمة تمامًا، ولكنها شبه عادلة في منح لقمة العيش، ومن امرأة أُحبها وتُحبني، وكان يمكن أن تُصبح هي الخيار الأمثل، حين كان ثمة خياران مطروحان: البيت وسيدته، أو الكتابة.

فتحت هاتفي حتى أسترد يومي العادي، بناء على قراري الأخير، وكان أن فاجأتني رنات صاخبة من نجمة، حتى قبل أن ينفتح الهاتف جيدًا.

١٠

كان المنظر الذي أشاهده أمامي الآن غير مألوف أبدًا، ولأول مرَّة منذ تعرفت إلى نجمة، أيام قصة «عتود الجيران»، وما تلا ذلك من خصومات وتصالحات، ولقاءات عابرة ومدروسة من جانبها، أحسُّ أنني أمام فتاة أخرى، فتاة تتقطر ملاحة من زيها العصري، إلى ابتسامتها الرائعة، إلى لمحات من أنوثة مرسومة بدقة، لم أتوقع أن ترتسم بها هذه الفتاة المتعالية، في أي يوم من الأيام.

كان الدكتور شاكر قد حدثني هاتفيًا في ذلك النهار، أخبرني أن مريضي نيشان قد تحسَّن بدرجة كبيرة، وسيبقى عدة أيام أخرى تحت الملاحظة الطبية، ثم يعود إلى حياته المعتادة من جديد، ولا ضرورة لترك انشغالاتي والحضور لرؤيته.

كان هذا ما قررته بالفعل، وباقتناع تام، قبل أن يهاتفني الطبيب. أيضًا أخبرني جوزف أفرنجي، في مكالمة بطريقة «الرنة الواحدة» أو «أحاجك بلا رصيد»، كما أُسميها، أن السكنى في ذلك البيت المستأجر في الحي الشعبي، من وسيط العقارات نعمان، أراحت أعصابه كثيرًا، ويتمنى لو عادت زوجته «أشول» وعاد ابنه «مهوقني» من دولة الجنوب الجديدة، لمشاركته السكنى

المبهجة، وأن جنِّيته «دلدونة»، صديقة سوق عائشة، غاضبة بلا سبب وقد هجرته، ولا يظنها ستعود مرَّة أخرى، إلا لو عاد إلى الخرقة الممزقة في ذلك السوق الضاج. أضاف: إنه تعرَّف في الحي الشعبي ذلك إلى جيران مريحين وسلسين، فيهم سكير رائع الصوت في الغناء، وامرأة تُجيد صنع «الزلابية»، ومعارض مُتمرس للسُّلطة إما في السجن وإما أنه سيعود إلى السجن لاحقًا، اسمه سلوم، ويلقبونه في الحي بالخال، وإنه جوزف أفرنجي، يفكر جديًا في تغيير اسمه من جوزف إلى الخال، ليصبح الخال أفرنجي، انبهارًا بذلك الرجل الصلد. ضحكت من قلبي وأخبرته أن الخال أفرنجي سيكون اسمًا مخلًّا، ومرتبكًا، ولا يتماشى مع الحياة التعسة التي يعيشها وربما تعتقله السُّلطة بسبب ذلك، وترحله إلى بلاده. كنت أعرف أن أفرنجي لن يقتنع، ولطالما غير اسمه بسبب ظروف تجد، ليعود إلى اسمه الأصلي مرَّة أخرى، وأذكر أنه كان يومًا: جوزف مانديلا، وجوزف بن لادن، وأسماء أخرى، لم أعد أتذكرها. وفي نحو ساعة تبقت لي على الموعد الذي حددته للقاء نجمة، تصفَّحت كتابًا عن علم ما وراء الطبيعة، باحثًا عن شيء ربما يُلهمني في حل معضلة نيشان و«أمنيات الجوع»، ولم أعثر للأسف على شيء مهم. كان سردًا متواضعًا لكرامات المتصوفة من عبور للبحر بلا سفن، أو التواجد في مكانين مختلفين في نفس الوقت، أو تحويل الماء العادي إلى حليب، بلا أي شرح عن كيفية حدوث ذلك. تركته وفي نيتي أن أبحث عن آخر أكثر جدوى، وخرجت متجهًا إلى موعدي مع نجمة.

كانت نجمة قد سبقتني إلى الموعد، وتجلس على طاولة

مريحة في كافتيريا «جوانا» في منطقة الرياض الراقية، تنتظرني وقد ارتدت قميصًا أزرق فاتحًا من موضة حديثة لأول مرَّة، وتنورة من الساتان الأسود اللماع، تضع على رأسها غطاء رماديًّا من الحرير يتماشى مع الطقم، وعلى وجهها تغيرات عدة، لم تنسَ حتى ظلال العينين، وإطالة الرموش، وحف الحاجبين ليصيرا أرق من خيط.

كانت باختصار فتاة هذا العصر التي لم تُرد أن تكونها طوال السنوات الماضية، أسيرة للموضة بجدارة.

وجدت نفسي أتأملها حتى من قبل أن أُلقي التحية، وأركض بتخمينات لاهثة نحو أعماقها، لأعرف ماذا حدث، وماذا يمكن أن يحدث.

وبلا أي تفكير في صحة السؤال أو خطئه، سألتها:

- ماذا حدث لك؟ لماذا تغيَّرت فجأة؟

مالت برأسها قليلًا إلى ناحية اليسار، في حركة دلال مألوفة ومنتقاة، تُقحمها النساء كثيرًا في السلوك، لكنها لم تبتسم. ردت:

- أريد أن أصبح أمًّا.

سؤالي الآخر أيضًا كان بلا تروٍّ، ولا تدقيق في كونه سؤالًا يلائم الموقف أو لا يلائمه:

- هل ستتزوجين؟ مَن؟ صاحبك طلمبة؟

اختنقت بلا شك، وبدت عابسة كأشد ما يكون العبوس:

- أنا أتزوج من واحد مثل طلمبة؟! هل أنت جاد؟! وعلى أي حال، طلمبة أصبح في ذمة الله، الله يرحمه.

صُعقت كأنني أسمعها تتحدث عن قريب أو صديق:

- هل مات كاتب العرضحالات حامد طلمبة؟

- نعم، منذ ستة أشهر في حادث مروري من الحوادث التي نشاهدها كل يوم. لقد ضاعت الرواية التي كان يكتبها في حياتي.

لا أدري ماذا يمكن أن أقول في تلك اللحظة، والفتاة المتعالية تتعالى حتى على المأساة، وتتحدث عن موت عاشقها المسكين كأنها تتحدث عن موت صرصور مقرف في ركن من أركان مطبخها. ما كان يهمها من وجوده هو أنه كان يكتبها معشوقة أسطورية، في كل خطوة من خطوات حياتها العادية، وتستوحي من كتابته رواية مملة وسخيفة، وحتى هذه لا أظنها كانت تستطيع كتابتها، وإلا ما لجأت إليَّ ذات يوم.

بدأت أتصارع في داخلي بين أن أُكمل جلستي معها، أتقصى أنوثتها الجديدة المفرطة وأسبابها، أو أذهب إلى حياتي، أُنظفها من هذه القسوة، وأبكي على راحتي ولدًا مسكينا لم أعرفه حقيقةً، ولكن أستطيع أن أرسمه كما عاش، وكما كان يمكن أن يعيش لو أنه أحب واحدة أخرى غير نجمة.

تلك اللحظة انتصرت لطلمبة، نهضت من مقعدي، والقهوة التي أحضرها النادل المتأنق لا تزال ساخنة لم تُمس. لكن نجمة أمسكت بيدي في رجاء، وأحسست أن يدها لا تشبه الشخصية بأي شكل من الأشكال. كانت يد أنثى ناعمة. كانت تقول:

- اجلس من فضلك! رجاءً أستاذي!

جلست متململًا، وأخذت تتحدث مباشرة:

- دعك من الماضي أستاذي، وأخبرني صراحة: لماذا لم تتزوج مرَّة أخرى بعد طلاقك منذ سبعَ سنوات؟

كان سؤالًا مباغتًا بلا شك، والفتاة تعرف تاريخي بدقة، وكنت أملك عشرات الأجوبة التي يمكنني أن أتقيأها كلها أمامها الآن. أُخبرها مثلًا: أن الزواج عدو للكتابة الإبداعية، أو بالأصح ضرة لها، أن المبدع المشغول بزخم الإبداع لا يمكن أن ينجز زخمًا مماثلًا يخص أسرته، أُخبرها أن وجود الكتب في بيت الزوجية أشبه بوجود ألغام في حقل ضيق، قد تنفجر، وتُفجر الفوضى، وتجر الشجار في كل يوم، وأن حياتي هكذا أملكها وأعتني بها، وتمدني بالتشرد الذي أحتاجه أحيانًا لأنجز نصًّا.

لكني لم أقل كل هذا. أمسكت العصا من المنتصف فقط لأعرف ماذا يدور في ذهنها القاسي، وماذا تخبئ الأنوثة الجديدة:

- لا أدري، لم أفكر فقط. ربما فشل التجربة الأولى جعلني لا أسعى لتكرارها.

- ممكن.

ردت ورأسها الآن يميل إلى اليمين، وخصلة من شعر مصبوغ ببُني داكن، تطلُّ صريحة من تحت غطاء الرأس الرمادي.

- ممكن. لكن ليست كل التجارب واحدة، وحتى في كتابة التجارب الروائية، قطعًا لديك تجارب ناجحة، وأخرى ليست كذلك، هل توافقني الرأي؟

في هذه أوافقها بلا شك، وعندي روايات تمنيت لو لم أكتبها، خصوصًا في بداياتي حين كنت أحكي ببخل، وأطارد إيقاع الجمل وأنا ألهث، حين كانت لديَّ شخصيات لم أستثمرها جيدًا، وشخصيات أخرى أسرفت في استثمارها حتى أصابها

التوعك. لقد كنت صريحًا جدًّا في قراءتي لتجربتي الخاصة، حيَّيت ما يستحق التحية فيها بعمق، ولُمت ما يُلام بقسوة، وسعيت جاهدًا، طوال سنوات طويلة، إلى مطاردة الأمراض والعلل في جسدها لأداويها. ربما نجحت في ذلك، وربما أخفقت، ولكن تبقى التجربة في النهاية، ابنة لكاتبها، سيتبناها شاء أم أبى.

- نعم أوافقك الرأي، ولكن ما سبب هذه الأسئلة الغريبة؟

انتبهت وأنا أتأملها أكثر، وأستعيد لقاءاتي بها، إلى أنني لم أكتب شخصية كهذه قَطُّ في حياتي، ولا خطر لي أن أكتبها، أعني شخصية المرأة المنبهرة بآرائها وتفرُّدها وحدها، التي يمكن أن تحتال على البشاعة، وتُحيلها جمالًا، أن ترى شهقات الآخرين المعذبة من أجلها مصدر إزعاج لهدوئها، وشهقتها هي ضوءًا ملونًا ينبغي للآخرين الانبهار به واتباعه. حتى ضابط الأمن سلمى القاسية، مبتكرة التعذيب الجنسي التي كتبتها في إحدى الروايات وذكرت أنني أطلت حياتها في آخر صفحتين، لتعتذر لضحاياها العديدين قبل أن تموت، كانت في النهاية امرأة مقتنعة بأنها في ساحة عمل ينتهي بانتهاء دوامها الرسمي، وتعود إلى بيتها لتحتضن زوجًا أو تُقبِّل ولدًا، أو تُشعل نارًا لتطهو الطعام.

نجمة تختلف تمامًا، نجمة شخصية مخصصة لنفسها فقط، وأقسم إنها لم تكنس حوشًا مغبرًا من قبل، ولم تغسل طبقًا مُتسخًا للطعام، أو حتى تضبط ساعة منبه على وقت استيقاظها، والآن تسعى لتقلُّد منصب الأم بطريقة خالية من أي مؤهلات، طريقة نزقة.

لكن مَن هو ذلك الرجل الذي سيمنحها هذا الشرف؟

أحسست بكآبة حقيقية حين فكرت أنها ربما تسعى للزواج بي شخصيًا، وإلا لماذا هذه التغيرات التي خُصصت للقائي؟ ولماذا تسألني عن الزواج في هذا التوقيت بالذات؟ وأنا أعرفها منذ زمن ليس بالقصير، ولم تطرح مثل هذه الأسئلة عليَّ من قبل.

ضغطت على ذهني لأنفض الكآبة، وأنتظر ما سأسمعه.

- باختصار شديد.

رددت نجمة، وقد تلاشت أعباء كثيرة من إضافات وجهها، وحلَّت مكانها أعباء جديدة ناعمة. كانت ثمة خصلتان من شعرها البُني الآن واضحتين، وكأن تنفسها تماسك أكثر، لأنني لم ألحظ أي اضطراب في صدرها وهو ينظم الأنفاس. كان ثمة حوض لسمك الزينة موضوعًا على رف في محيط نظراتي، وبدت لي سمكة برَّاقة فيه تسبح بخيلاء خلافًا للأخريات.

- باختصار، أنا اخترتك بعد تفكير عميق وبعد غربلة لجميع مَن أعرفهم سواء مَن تقدَّموا للزواج مني أو لم يتقدموا، لتكون زوجًا لي يهبني الأمومة. إن كان ذلك لن يضيرك. لن أدعي أنني سأُسعدك أو أعوضك عن حياتك القديمة، لكني أحتاج للأمومة بشدة.

لم أندهش على الإطلاق، ولا ينبغي أن أندهش وذلك سلوك ينطبق على الشخصية التي أعرفها تمامًا، ولو لم تقل نجمة ذلك لاخترعته أنا وألبسته شخصيتها من دون أي توتر ولا إحساس بأنني أتعدى على حقوق امرأة.

كانت المرَّة الأولى التي أسمع فيها بفتاة تريد الزواج لأجل

التخصيب، وستكون الأخيرة بلا شك، إلا لو ساءني الحظ والتقيت بنجمات أُخر يحملن الدرن نفسه.

في بداية تعرُّفي الحتمي إلى المرأة، وحين التقيت مَن أحببتها وأحبتني وتزوجتها، ثم اختلفنا بعد ذلك، كنت أمام أنثى تحمل موروث الإناث الشفاف، ولم ترضَ أن تُسخِّر حتى نظراتها وتبوح بالرغبة، والآن أنا متوعك وأمام صياغة غريبة، لكني سأفلت.

لن أتزوج من فتاة اخترعت لكاتب العرضحالات الراحل سككًا معذبة سار فيها حتى مات.

في الواقع لن أتزوج حتى من مجرد فكرة حول الزواج منها قد تدور في رأسي.

كانت كافتيريا «جوانا» قد بدأت تزدحم، وشباب بشعور طويلة، وسراويل ممزقة من الجينز، وقمصان عليها صور المصارع «جون سينا»، قد أطفأوا أنوار المكان بلا إذن ولا مبرر، وأوقدوا شموعًا ملوَّنة على كل الطاولات، حتى طاولتي التي أجلس عليها مع نجمة. ولم أفهم مغزى ذلك إلا حين ضج المقهى بموسيقى مؤلمة، محطِّمة للرأس والأعصاب، حتمت عليَّ أن ألغي الجلسة، وألغي نجمة، وأعرف أنها لم تنهزم، وستسعى لتحويل لقاء الهزيمة هذا، إلى نصر واهٍ لن يفخر به أحد غيرها.

١١

أسبوعان مرًّا على إرباك نجمة لي في كافتيريا «جوانا» جعلاني أنتبه لأول مرَّة منذ سبع سنوات إلى أنني أحتاج بالفعل إلى امرأة. ليست نجمة بكل تأكيد لأنني صنَّفتها كابوسًا مرعبًا وانتهيت، ولكن أخرى ربما أسعى في البحث عنها حين تعود حياتي المبعثرة جدًّا، بعد ظهور نيشان ليرمي لي بذلك النَّص الملعون ويعلق في رقبتي، إلى بعض هدوئها.

نبهتني نجمة من دون أن تدري، إلى أن أم سلمة، الأرملة التي تحاول لملمتي، وترتيب بيتي، وإعداد طعامي مرتين في الأسبوع، لم تكن في الحقيقة عاملة جيدة، ولا نصف جيدة، وحتى طبخها لم يكن متماسكًا، ولا صحيًّا، وغسيلها للملابس وكيها، كان أسوأ غسيل وكي أعرفه، وأنها تبدو متعجِّلة دائمًا، وتشكو من ولديها المراهقين، وما يرسمانه من أحلام مكلِّفة، كلما لمحتني في صالة البيت أو طرقت غرفتي لتسألني شيئًا.

عاطفيًّا، نبهتني نجمة أيضًا إلى أنني أفتقر إلى أدنى مقومات الخفقان المطلوب لدى قلوب في سن قلبي. لم أشم بخورًا معطرًا على موقد مزخرف منذ عهد. لم أرَ قارورة عطر مضلعة أو

على شكل وردة أو ثعبان، من ماركات «كوكو شانيل»، و«نينا ريتشي»، و«إيف سان لوران»، تتقافز من ركودها على طاولة الزينة، إلى جسد حي أستطيع لمسه. لم أشاهد ستائر جديدة على نافذة، ولا مشطًا أنيقًا لتمشيط الشعر، ولا سيشوارًا لتجفيفه، ولا أي شيء آخر له علاقة بالجمال أو المتعة. كنت أتحرك في ممر ضيق، من جفاف متماسك إلى جفاف متماسك، ومن عُزلة مبتكرة إلى انفراج محدود، ثم للعُزلة مرَّة أخرى. أكتب تلك الروايات الضالة بلا أي تمييز، ولا رابط بينها وبين تجربة قد تثري أكثر لو كانت الحياة أفضل.

سألعن نجمة بلا شك لأنها نبَّهتني إلى موت كنت أموته بوهم الحياة، وسأكتبها ذات يوم بمغص، أكثر من ذلك المغص الذي مات به كاتب العرضحالات المسكين «حامد طلمبة».

فجأة خطرت ببالي ليندا الظل. في الحقيقة لم تخطر هي، ولكن تلك اللوحة البديعة التي اجتهدت في رسمها لها، مهتديًا بمعطيات الصوت شبه اللاهث، والهمس الرقيق، وذلك الشجن الدافئ الذي أحسه يتقافز من هاتفي كلما حاورتني. استدعيت اللوحة كاملة إلى ذهني وبدأت أقرأها بنشوة.

لماذا لا أسعى للزواج من ليندا الظل؟

قد يكون ذلك جنونًا حقيقيًّا؛ إنني لم أرها قَطُّ بعيني، ولا أعرف تصميم وجهها أو نظرات عينيها، وإن كانت رائعة كلوحتي المرسومة، أم مجرد فتاة قارئة بلا أي إضافات أخرى تستحق المغامرة. الجنون الآخر أنني أكبرها بما لا يقل عن سبعة وعشرين عامًا، لكن ذلك ليس مشكلة على الإطلاق.

الفتاة التي لا تحب المواجهة، ولا توجد في أي حفل يترنح بالفضول وكاميرات التصوير، والعيون التي تلتقط، ربما تكون نصيبًا مدهشًا لرجل اعتاد المواجهة، بدرجة يمكنه فيها أن يدرب فراشة على الوقوف ساكنة في مواجهة الضوء.

لِمَ لا حقيقةً؟ وليندا الظل تعشق كتابتي وتطربني بآرائها، وربما تكون تحبني أيضًا وتنتظرني، والظل لا أظنه يرفض مصاهرة كاتب، وهو نفسه كاتب.

أردت أن أُبقي تلك الخاطرة الجميلة في ذهني لأطول وقت ممكن، لكنها تسرَّبت وأعرف أنها ستعود مرَّة أخرى.

دخلت إلى صفحة نجمة الشخصية في «فيس بوك» لأرى ماذا كتبت بعد فراري من نزقها في كافتيريا «جوانا»، ووجدتها، كما توقعت، قد احتالت على الهزيمة وحوَّلتها إلى انتصار. وضعت صورة واضحة لها بأُنوثتها الجديدة، المبالغ في إشعالها، وكتبت تحتها: «حتى لو جئت بالقمر مهرًا سأُطالبك بقمر آخر تخترعه من أجلي، وبعدها ألغيك».

وكالعادة ألف علامة إعجاب من ضمنها علامة مني شخصيًّا وضعتها عن قصد، ومئة تعليق، أبرزها ما كتبه الشاعر «فتاح»، وكان شاعرًا معروفًا بسخائه الشديد في تقصي الصفحات الإلكترونية التي تُحررها النساء، ووضع تعليقات جائعة على كل صفحة: «نعم نجمة، لكني بالفعل أملك ثلاثة أقمار في قلبي، سأُقدِّمها بكل طيب خاطر، وأذهب لأحتفل بالإلغاء مع الأصدقاء».

على صعيد معضلة نيشان التي أحاول نسيانها كل يوم، ولم أنسها قَطُّ، فقد أخبرني الدكتور شاكر في أحد الأيام، وفي مكالمة متعجلة، بضرورة حضوري لمقابلته الآن. ظننت أن الرجل انهزم، وعاد إلى حالة الذهول المتورِّم مرَّة أخرى، واقترف آثامًا بلا حصر. لكن الأمر كان مختلفًا، حين التقيت الطبيب الأنيق في مكتبه وحدثني بما يقلقه:

- لقد استطاع نيشان خلال وجوده في المستشفى، سواء في غرفته، أو حين يتجوَّل في الحوش أو الحديقة، أن يتعرف إلى كثيرين من زملاء المرض الذين شفوا بالفعل أو قاربوا على الشفاء. قويت علاقته بطوبة؛ لاعب كرة القدم المعتزل الذي كان يحاول تدريب الطير على لعب الكرة، وسهلي؛ السفير السابق بوزارة الخارجية الذي أُصيب بمرض الفصام حين عُيِّن سفيرًا للبلاد في بوركينا فاسو، وعبد العظيم تنقاوي؛ الذي قضى أربعين عامًا في كلية الطب ولم يتخرَّج إلى الآن، وصلاح عاجي؛ الذي يُسمي نفسه «حسب الطلب»، وكان فيما مضى مغنيًا مرموقًا، وآخرين جميعهم من مرضى الفصام العقلي أو الاكتئاب الذين تحسَّنت أحوالهم بنسب متفاوتة. حرَّضهم نيشان على ترك عالمهم السابق، ومشاركته عالمه الجميل في حي «وادي الحكمة» بمجرد خروجهم من هذا الجُحر، وبدوا مقتنعين ومنساقين لدعوته، لدرجة أن بعضهم يرفض الآن لقاء أهله في أي زيارة يقومون بها إليه، وبعضهم قالها صريحة لأولئك الأهل إنه ليس منهم.

الموضوع في نظري كان في غاية الطرافة، فلا أحد من أولئك المرضى المترفين، الذين يُعالَجون في مستشفى استثماري،

يستطيع أن يبقى ساعة واحدة في «وادي الحكمة»، حتى لو كانوا بلا عقول تُميِّز.

ضحكت بعمق، لكن الدكتور شاكر لم يضحك. خاض معي في نقاش أرعن عن معضلة الفصام حين يظل موجودًا حتى النهاية، يقاسم المصابين أنفاسهم، وتلك الحقن والأقراص التي تُمنح كعلاج، هي في الواقع مجرد عقاقير للتهدئة، وليست للشفاء الكامل. وحدثني عن الخطر الكبير الذي سيتحاوم حول سكان «وادي الحكمة» إن تحوَّل إلى مستعمرة بلا عقل حتى ليوم واحد قبل لملمة أولئك المرضى وإعادتهم إلى المستشفى.

لم أشاركه القتامة التي احتلت عباراته، وطلبت منه أن يُخرج نيشان من المستشفى إن كان جاهزًا ليخرج، لأنني أريده في موضوع آخر. سأذهب به إلى حيث تُراجع غدده كلها، لمعرفة احتمالات نهاية «أمنيات الجوع». لكن في تلك اللحظة، كانت ثمة مفاجأة كبيرة، فقد حضر فجأة ممرض مذعور ليُخبر الطبيب أن المريض نيشان حمزة غير موجود في المستشفى، ولا يعرف أحد كيف فر وإلى أين.

سأله الطبيب وقد توتر:

- وهل فر معه مريض آخر؟

- لا. كل المرضى موجودون.

رد الممرض وانصرف، وبقيت لدقائق أُحدِّق في احتمالات ملعونة، أراها بالفعل تتقافز أمامي.

كان أسوأ تلك الاحتمالات أن يعتبرني نيشان عدوًّا، فيسعى للتخلص مني. اكتشفت أن ما ردده الطبيب عن مرضى الفصام،

واحتمالات بقائهم مرضى طوال العمر، حقيقة، وإلا كيف يفر رجل تم شفاؤه، أو قارب على الشفاء، من ملجأ حلم، إذا ما قورن بعشة الصفيح الرثة التي يتسخ فيها في حي «وادي الحكمة».

أردت أن أسأل إن كان قد تلقَّى مكالمة من امرأة، وفي ذهني تتراقص صورة متخيلة، لرنيم المهاجرة، ياقوتة القديمة التي ربما تكون قد عادت من هجرتها فجأة، لتُكمل معنا النهاية المتوقعة لـ«أمنيات الجوع». سألت بالفعل ولم يكن هناك مَن يعرف، وخرجنا أنا والطبيب نترنح في المستشفى، نستجوب ممرضي الغرف، وحرَّاس البوابات، وبعض المرضى الذين يمكن أن يدلوا بإفادة ما، ولم يكن أحد يعرف شيئًا. لقد تبخَّر نيشان هكذا فجأة من غرفة لا تدخلها ذبابة من دون إذن للمرور، أو لعله تبخَّر في ساعة من ساعات التجوال في حديقة المستشفى. لكن تلك الساعات كانت أيضًا محروسة.

أحسست بحاجتي إلى أخي مظفر فجأة، أريده أن يكسر عُزلتي وخوفي من وحدة مليئة بكوابيس شتى، أعرف أنها ستتوالد في لياليَّ القادمة. أخرجت هاتفي، كلمته وبدا قلقًا، وقال إنه سيحضر في أي لحظة، وفي أول طائرة يعثر على إمكانية للسفر فيها.

١٢

في ذلك المساء الذي لا يُنسى، كنت أنا وأخي مظفر زائرين غير متوقعين لبيت المسرحي القديم عبد القوي الظل. كان الجو قد بدأ يعتدل إلى حد ما، وثمة نسمات رائعة تهب من لحظة لأخرى.

كان أخي مظفر، الذي أطال عطلته الطارئة قليلًا من أجلي، يبدو عاديًّا بسروال جينز عادي، وقميص مشجر، بينما كنت متأنقًا بشدة، أرتدي بدلة سوداء، وقميصًا حريريًّا أزرق، وربطة عنق حمراء داكنة كنت قد اشتريتها في إحدى رحلاتي إلى أوروبا.

كنت قادمًا لأرتكب جنوني الذي أقسمت على اتباعه بعد ليالٍ من الأرق والخواطر المبتعدة بشدة عن طريق نيشان حمزة، لتركض في طريق آخر: أن أتقدم للزواج من ليندا الظل، وأنا على ثقة من لوحتي المرسومة التي لن تكذب.

كان الظل متكئًا على سريره الخشبي المنسوج بالحبال، في حوش البيت كعادته التي لن تتغير كما أعتقد بعد هذا العمر، وأمامه كوب من الزجاج المقلم ممتلئ بالحليب، وبين يديه كتاب متوسط الحجم يطالعه، وعلى عينيه نظارة دقيقة للقراءة ذات إطار من المعدن.

شاهدت فجأة الدكتور صابر حزاز، معالج الطب الانعكاسي، وبيده حقيبة سوداء من الجلد النظيف، قادمًا من الداخل حيث توجد ليندا وأمها العجوز بلا شك، والفتاة ذات النهدين الضامرين والشعر المجعد التي لا أعرف إن كانت من أهل البيت، أم مجرد خادمة، وأعرف أن الابن الوحيد لقمان قد هاجر إلى أمريكا منذ أربعة عشر عاما وهو يأتي من حين إلى آخر، يبقى أيامًا معدودة، يرتدي فيها القمصان المزركشة والسراويل الممزقة عند الركبتين، يتصعلك في الشوارع والأسواق، يبحث عن فروع محلية منهزمة لدجاج كنتاكي وماكدونالدز وبيرجر كينج، ويسب السُّلطة، والتخلف، والمتسولين المزروعين في الشوارع، ويعود إلى أمريكا مكملًا هجرته. وقد أخبرني الظل مرَّة أنه فخور بابنه، وقد أصبح اسمه الآن «لوقو الظل»، أو «لوقو ذا شادو»، ويعمل مغنيًا للراب في فرقة «المحلقين» الكبرى التي تشارك في الاحتفالات العامة، والحملات الانتخابية، ولديها عشاق هناك أكثر من سكان بلادنا كلها. لم أسمع حقيقة بفرقة «المحلقين» تلك، ولا لديَّ ثقافة تخص أغنيات الراب، لكني لم أناقش في ذلك، وشاركت الأب انبهاره بطيب خاطر.

لم يلتفت الدكتور حزاز إلينا، ولا يبدو أنه شاهدنا حتى، واتجه إلى الباب بخطوات نشطة لا تشبه عمره. وقد تذكرت الآن أنني شاهدت عربة «همر» حمراء على مقربة من المكان، ولم أربط بينها وبين معالج الطب الانعكاسي، ولا توقعت وجوده هنا أصلًا. على أنني لم أترك نفسي أنساق وراء أي فضول بشأنه

وسبب وجوده في بيت الظل، ولديَّ لوحة ناقصة، أسعى لتكملتها، ومهمة عاطفية بالغة الأهمية من المفترض أن تنتهي الآن خيرًا أو شرًّا.

في الأيام الماضية، وفي رحلة مضنية للبحث عن نيشان حمزة الذي نشطت أحاييل الشرطة أيضًا وراءه بعد بلاغ غير ضروري كما أعتقد، من مستشفى النخيل للأمراض العقلية، ذهبت برفقة أخي مظفر إلى حي «وادي الحكمة» حيث اتقد جمر الحكاية ولم يخمد إلى الآن. بينما لم يكن جوزف أفرنجي، الذي غيَّر اسمه بالفعل إلى الخال أفرنجي، يرافقنا، بعد أن تم اصطياده من إحدى الخمارات العشوائية، والآن يتعذَّب في أحد المعسكرات الطرفية، ليواجه بقلب واجف احتمالات ترحيله إلى دولة الجنوب.

كان وسيط العقارات نعمان قد أخبرني بذلك، بعد أن انقطع أفرنجي عن التواصل معي عن طريق الرسائل. أخبرني أنه لم يذكر اسمي للجهات المسؤولة، بوصفي مؤجرًا للبيت الذي أقام فيه أفرنجي حتى لا يُعرضني لأي توتر غير ضروري، وكان أن شكرته بحماس وسلَّمته بيته، وتحسرت على جوزف الذي كان يخطط لي روايات مستقبلية، عليَّ أن أتخيلها الآن في غيبته، وربما حين أفيق من قلقي وورطاتي أحاول إخراجه من تلك المحنة، إن عثرت عليه موجودًا لا يزال.

لم يكن الإمام «حج البيت» موجودًا في «وادي الحكمة» هذه المرَّة. في الحقيقة لم يكن موجودًا في الوطن كله، وقد تطوَّع العشرات ممن عثرت عليهم متجمهرين أمام الخرق الممزقة،

يبيعون ويشترون، ويساومون بلا بيع أو شراء، لإخباري أن «حج البيت» عثر أخيرًا على فرصة عمره حين سافر للعمل مؤذنًا في إحدى القرى النائية في سلطنة عمان، وأن شخصًا من أقاربه، يعمل مدرسًا في تلك القرية، استطاع أن يُرسل له عقدًا للعمل، وكسوة للوجاهة، وحتى تذكرة السفر على شركة «فلاي دبي» المؤسسة حديثًا، وسيلحق به أبناؤه قريبًا.

أحسست بالبهجة أن أحد أبناء «وادي الحكمة» قد عبر إلى ما هو أفضل بكل تأكيد، حتى لو كان ذلك الأفضل مجرد عبور للعمل على رأس جبل أو قحط صحراء، وفي نفس الوقت أحسست بالعُري لأننا أصبحنا بلا حماية أو غطاء معنوي، إن حدث وتعرضنا لمأزق كما حدث في المرَّة الأولى حين هتف عجوز خرف ضدنا، وكدنا نختنق من ثورة سكان «وادي الحكمة» وبوادر الإيذاء. لكن شيئًا من هذا لم يحدث هذه المرَّة لحسن الحظ، ولا كان ثمة حلقة تضيق وتتسع من حولنا، أو عجوز بلا موهبة يتسكع في المكان. كان البيع على الخرق المُتسخة مستمرًّا، والشراء المسكين يشتعل وينطفئ، وثمة عربة «بيك اب» قديمة بلا لون واضح متوقفة في المكان وعلى ظهرها تلال من البطيخ والطماطم الموجوعة. وقبل أن نبدأ رحلة البحث عن نيشان الذي لم يقرر أحد أنه شاهده في الحي منذ أن التقطناه عنوة في تلك المرَّة، سألني شاب متأنق إلى حد ما، يضع على رأسه قبعة من القماش، ويتدلى على صدره رباط عنق رمادي مقلوب على ظهره، إن كنت أذكر الشاب مرتجى. وكان قد سمع من الناس أنني حضرت إلى الحي مرَّة، ومن المؤكد أنني شاهدته.

للوهلة الأولى بدا لي الاسم غريبًا وغير مألوف، لكني ما لبثت أن تذكرته فجأة. نعم مرتجى، «ويكيبيديا»، الموسوعة الحرة، الشاب الذي كان يتحاوم في المرَّة الأولى بنصف سروال ممزق، وعيناه باتجاه الأرض، ويسرد قصصًا غريبة من ويكيبيديا رأسه عن نسنوسة آكلة لحم القطط وقاهرة جيش الرومان، في معركة «وادي الحكمة». نعم هو.

- ماذا حدث له هو الآخر؟ لا تقل لي هاجر برفقة الإمام!

كنت أسأل من دون أن أرد على سؤاله، وبدا سؤالي ساذجًا إلى أقصى حد، فليس من المألوف أن يهاجر مَن هاجر عقله، ومرتجى بلا عقل يمنحه فرصة أن يُقدم شيئًا لأي شيء.

رد الشاب:

- لا.

- كان يكتب قصصًا باللغة الإنجليزية، قصصًا حقيقية وغير مسبوقة، وقد قمت بسرقة إحداها، واسمها «crack»، أي «صدع» بالعربية، وأرسلتها من دون علمه إلى مسابقة أفريقية كبرى، ففازت بالجائزة الأولى.

- معقول؟!

- نعم معقول. ولِمَ لا؟ هل تعرف كم قيمة الجائزة؟ إنها ثلاثة آلاف دولار.

- معقول؟!

كنت أردد الكلمة بلا وعي، وأحس في نفس الوقت بالبؤس أنني لم أنتبه لكاتب موهوب كان يسرد نصوصًا متخيلة، ربما ألهاني جنونه عن الالتفات إليه، وربما كان شغفي وانشغالي

بمطاردة نيشان قد عطل تلك الكاميرا اللاقطة التي طالما استخدمتها في التقاط المألوف وغير المألوف.

- معقول؟ وأين مرتجى الآن؟

- لا أدري، استلم أهله الجائزة وتركوا الحي سرًّا، من دون أن يعرف أحد أين ذهبوا.

- خسارة، كنت أود لقاءه.

قلتها مجاملة لحماس الشاب، وأعرف أن لا جائزة ولا أي بهجة أخرى، تستطيع تلوين حياة واحد سيظل هكذا هائمًا بين مد وجزر، كما ذكر الطبيب النفسي وهو يتحدث عن نيشان. وقد خطر لي في نفس اللحظة أن أبحث عن اسمه، وتلك الجائزة الكبرى التي حصل عليها، وأعرف أن سكان مثل تلك الأحياء البعيدة المتأزمة، حتى لو تعلموا، يبالغون أحيانًا في الوصف، ويمكن أن يصفوا نعجة هزيلة وصف ثور جارح، أو زقاق ضيق في الحي كما يوصف شارع «الشانزلزيه» في باريس، أو شارع «إجوار» في قلب لندن. وقد سمعت مرَّة عن رسام يقيم في حي شبيه بـ«وادي الحكمة»، وقيل لي إنه قد رسم الدنيا كلها، ولم يرها حقيقة، وكان أن ذهبت لرؤية لوحاته، ووجدتها مجرد هواجس مزرية لا ترقى حتى لتكون لوحات. وقد أخبرني ميكانيكي عجوز كنت أعالج عربتي في ورشة يعمل فيها، ويسكن في حي القمائر البعيد أيضًا، أنه هو مَن قام بتجهيز تلك العربة التي فر بها رئيس سابق في يوم الانقلاب عليه، وبالطبع كان خيالًا، أو مجرد أمنية، لأن ذلك الفرار الذي ذكره، ومَن ساعد في تأطيره، كان معروفًا للجميع.

بغتة طعنني الشاب بجملة لم أكن أنتظرها أو أتوقعها، وقد لمعت عيناه ببريق عدائي:

- بالمناسبة يا أستاذ، أنا الذي قرأت روايتك «أمنيات الجوع»، واغتظت منها بشدة، وأحضرتها لنيشان حتى يرى جريمة ما اقترفته في حقه. أنا شعيب زهري، خريج كلية الإعلام وعاطل عن العمل منذ أكثر من أربع سنوات.

إذن فهذا هو الذي أيقظ المأساة من رقدتها، وألبسني حياة أخرى لم تكن حياتي في أي يوم من الأيام.

هذا مَن أرسل ورائي مهووسًا فاجرًا، ليحولني بين ليلة وضحاها إلى طريدة، تتحول بعدها تدريجيًا إلى مطارد لطريدة، بعد أن تبادلنا المواقع أنا ونيشان.

مَن يطارد مَن في نص شديد الواقعية مثل هذا؟

في الواقع لم أكن الصياد برغم فرار الصياد من وجهي ليمنحني امتياز أن أُصبح صيادًا، ولكني الطريدة، يطاردني شعور بالوهن أنني لم أعثر حتى الآن على نهاية واقعية ملائمة لنص افتراضي كتبته، أو كتبه نيشان، لا أحد يدري ولا أحد يمكنه أن يدري.

حين حكيت قصة التخاطر تلك لأخي مظفر بعد عودته من مقره في غرب البلاد، صباح اليوم التالي لمخابرتي له، بدا في غاية الحزم، وكان سيِّئ الظن بدرجة أرعبتني، ورأى أنها مسرحية من صياغة حي فقير يود أن يغتني على حساب كاتب ظنوه غنيًّا، وليس نيشان حمزة سوى مُبتز ادعى الجنون وغيَّر اسمه ومعلوماته بناء على ما ورد في داخل الرواية وليس العكس. الهوية

الشخصية يمكن أن يزيفها عسكري مغمور، يعمل في مكان إصدارها، أو حتى ساعٍ يصنع الشاي والقهوة. الوجوه يمكن تزييفها بسهولة شديدة، وحتى جنسية الوطن التي نعتبرها من المقدسات يمكن أن يكتسبها صياد للسمك في جزر «سيشل»، من دون أي عناء.

سألني:

- هل تذكر الخالة جليلة، التي كانت تُقدم برنامجًا في التلفزيون الوطني، اسمه «فاعل خير»، وتوقف منذ عشر سنوات؟

- نعم أذكر.

- هل تذكر الحلقة الأخيرة؟

- نعم أذكرها حين أعلنت الخالة أنها اكتشفت أن الدعم الذي كان يُقدم لبرنامجها من قِبل المحسنين لم يكن يستفيد منه أحد من مستحقيه، وأنها اكتشفت أن هناك تجارًا وموظفين كبارًا، وحتى وكلاء وزارات، يتقاسمونه بهويات مزيفة.

- جيد. لتُقلع عن هذا الخيال إذن، ولتكن كاتبًا في ساعات الكتابة فقط. «أمنيات الجوع» روايتك أنت وليست رواية أحد آخر.

لم أقتنع بما قاله حقيقةً، وقد كان مظفر عريقًا في تصورات سوء الظن منذ وعينا معًا، وأذكر إساءات ظن كثيرة له لم تُطابق الواقع قَطُّ. لكني استطعت أن أقنعه بضرورة أن نتقصى الحكاية ما دمنا قد انغرسنا في تربتها. سنذهب إلى «وادي الحكمة»، وغيره من الأحياء التي يمكن أن تؤوي واحدًا مثل نيشان.

كان زهري ما زال يقف أمامنا، وقد انضم إلى حصاره الآن عدد من السكان ربما بدافع الفضول وليس شيئًا آخر، لكني أحسست بالتوتر. أردت أن أُخبره بأنني كتبت روايتي من ذهني ولم أكن أظن أنها نص تخاطري، أو نص مشابه لنص مكتوب في الواقع، وما حدث سيظل معضلة غامضة، سآتي لإخباره شخصيًّا إن عثرت على حل لها، ولم أستطع أن أُخبره.

بدا زهري أقل عدائية فجأة، وقد أصلح من وضع قبعة القش على رأسه، وأدخل يده اليمنى في جيب سرواله. أخرج ورقة مطوية شبيهة بأوراق دفاتر الطلاب، وهو يقول:

- أنا أيضًا أكتب القصة، وهذه إحدى محاولاتي التي أُحبها. قصة قصيرة جدًّا اسمها «دون كيشوت لا علاقة له بسرفانتس». أريد أن أسمع رأيك فيها لو سمحت.

«دون كيشوت لا علاقة له بسرفانتس»، يا له من عنوان واعٍ وشديد الجمال، ويا له من حي غريب يتثقف فيه الناس ويتعلَّمون برغم الفقر. سأستمع إلى قصة زهري، ربما تكون رائعة كعنوانها، وربما لو أسرفت في إطرائها لكسبته.

الأخضر الفاتح: لون قميصه.

الأسود الكئيب: لون بنطاله.

الذي يرقد في جيبه هو عنكبوت الفقر.

التي تضيء أعلى رأسه هي الصلعة، والذي يحتضر في صدره هو قلبه.

لم تكن هناك طواحين متوفرة للهواء ليحاربها، فاختار أن يحارب المرأة.

امم. قصة كئيبة لا تُشبه «سرفانتس»، ولا علاقة له بها فعلًا. ولو ترك العنوان بلا قصة لكان أفضل!

في هذه الحالات يقول عبد القوي الظل، إنه يخرف ويخترع لغة الإحباط كلها، ليبعد متسللًا عن سكة الإبداع. لكني لن أفعل ذلك في حق ولد قرأ روايتي الملعونة، ولن يفهم أبدًا لماذا هي كذلك. سأقول إنها قصة جيدة، وتدل على موهبة، وسأكسر حدة الوجه وعدائية العينين التي ما زالت شبه مؤطرة في شخص زهري، وسأمنحه كلمة ستشعله حماسًا تجاهي:

- جيد يا شعيب زهري. قصة في منتهى الجمال، أنت موهوب فعلًا وأتمنى أن أقرأ لك في مناسبة أخرى. قل لي هل تعرف أين نعثر على نيشان؟

أظنه طرب وارتخت أنفاسه قليلًا، لم يقل شكرًا، ولم يرد على تساؤلي بخصوص نيشان، وسألني عن رقم هاتفي النَّقال، وكان لا بد أن أمنحه له برغم صرامتي الشديدة فيما يتعلق بهاتفي أو بيتي، كما ذكرت. سجَّل رقم هاتفي مباشرة في هاتفه القديم المتآكل من ماركة «أريكسون» شبه المنقرضة، وانصرف بخطوات سريعة، حتى من غير أن يُبدي رغبة في تعاون من أي نوع، وقبل أن يختفي تمامًا عن بصري، شاهدته يستدير بغتة، يعود إلينا مرَّة أخرى وقد تيبَّس وجهه. قال حالما اقترب مني:

- تعرف يا «مان» ما هو أكثر ما أزعجني في روايتك «أمنيات الجوع»؟ إنه غلافها. كان أسوأ غلاف أشاهده في حياتي على الإطلاق! ما معنى أن يضعوا لوحة تصور دجاجة مذبوحة؟! إنها حتى لا تتعرض لسيرة الدجاج مذبوحًا كان أو طليقًا!

ثم عاد وانصرف من جديد، من دون أن ينتظر إجابتي.

حقيقةً كان هذا هو انطباعي نفسه، وهذا الولد برغم سُوقيته واستخدامه للغة الشوارع في مخاطبتي، يبدو متمرسًا في مشاغبة الكتب، ذلك النوع من القرَّاء الذي يبدأ مطالعة الكتاب من غلافه ويتعمق في الإهداء ويحلله بدقة. وأذكر حين عُرض عليَّ الغلاف قبل طباعته أنني سألت عن معنى تلك اللوحة، وعلاقتها بالكتاب، وأخبرني مصمم الدار، وكان في نحو السبعين، اسمه «آدم» ويُلقب بـ«أبينا أدم»، بجلافة: إن كتابة الرواية شيء، وتصميم غلافها شيء آخر، ولا يجب أن أحتج على غلاف لم يُعجبني لأنني لست مؤهلًا لهذا الاحتجاج. كما أن الدجاجة المذبوحة ترمز للجوع بجدارة، ولو أعملت الخيال الذي أستخدمه في الكتابة، لعثرت على عيون يتامى وأرامل ونازحين تتأملها من بعيد ولا تستطيع الشبع. لم أجادل، وتركته لوساوسه ودربكته الفنية، وكان صاحب أكبر غرور يصادفني بين مصممي الكتب.

عثرنا على عشة نيشان بسهولة هذه المرَّة برغم تشابه معطيات الحي التي رسمتها العشوائية، أو الإنشاءات التي تجري في المكان، وكنت قد دوَّنت في ذهني علامات الوصول إليها، وكان أمامها بالضبط هيكل حديدي متآكل كان فيما مضى شاحنة كما يبدو، وقد تكون تلك التي كان يقودها قريبه زكريا الذي تزوج بإثيوبية وهاجر معها.

كانت العشة، كما شاهدتها أول مرَّة، مُتسخة جدًّا وسيئة الهواء، وقد تبعثرت الكتب والدمى القماشية في أرضية المكان.

كان ثمة موقد يعمل بالكيروسين ملقى بإهمال، وفانوس مهشم الزجاج، وعدة أوانٍ من الألونيوم موزعة هنا وهناك، وقد انتبهت إلى حزمة من الأوراق القديمة محشورة في أحد الكتب. أخرجتها ونفضت غبارها وأنا أعطس، وكانت مكتوبة بخط سيِّئ لكنه مقروء، وغالبًا ما يكون خط نيشان نفسه، لكونه تعلَّم أن يكتب في سن متأخرة. لم تكن درسًا في القانون كما يمكن أن أتوقع، ولا درسًا في أي علم من العلوم الأخرى، ولكنها محاولة مرتبكة لصياغة ما كُتب أعلى الورقة الأولى: نظرية الأقبح من الذنب.

لم أسمع في الحقيقة بنظرية كهذه، ولا خطر لي أن هناك من خطرت بباله أصلًا، وبدافع فضول غريب بدأت أقرأ ما اعتبرته خطرفة حقيقية من مجنون ضاع في داخل نص روائي، والآن يضيع بالفعل، ولا أستطيع أن أعرف حتى الآن إن كان سيتطابق الضياعان أم لا.

أن تتحدث كثيرًا هذا ذنب، وأن تصمت هذا أقبح من الذنب.

أن تُحب فتاة لا تُحبك هذا ذنب، وألَّا تحبها هذا أقبح من الذنب.

أن تكون عَجولًا هذا ذنب، وألَّا تكون هذا أقبح من الذنب.

توقفت عن القراءة، أعدت الأوراق إلى مكانها في وسط الكتاب. وكانت بعد ذلك رحلة شاقة خضناها أنا ومظفر بأقدامنا داخل الحي، شملت كل ما يمكن أن يكون أوكارًا للتخفي. وحتى تلك البيوت، التي قال الإمام «حج البيت» من قبل، إنها

أوكار سوء يقطنها اللظى المحرم. وصلنا إلى خط السكة الحديد المهجور، حيث عثرنا على نيشان آخر مرَّة، وأخذناه.

كان ثمة صبية يلعبون الكرة ويضجون، وفتيات مرحات يتنزهن وسط الخراب ولا شيء آخر. وتبدو على البُعد مدخنة تضخ السواد، ولا بد من وجود مصنع أو مصفاة للنفط محفورة في ذلك المكان. وحين قررنا الخروج من الحي، ومررنا بقرب أبسطة البيع والشراء، كان زهري موجودًا، وبيده ورقته المطوية، يقرأ كما يبدو «دون كيشوت الذي لا علاقة له بسرفانتس»، لفتاتين خشنتين تلتصق إحداهما بكتف الأخرى.

حين وصلنا البيت بعد ذلك، وبعد جولات مشابهة في أحياء أخرى، لم نعثر فيها على شيء أيضًا، كان أول ما خطر ببالي أن أفتح جهاز الكمبيوتر، وأبحث عن مرتجى ويكيبيديا، وجائزته الأفريقية ذات الثلاثة آلاف دولار.

كتبت اسم مرتجى على جوجل بعدة أشكال، باللغة الإنجليزية. أضفت إلى البحث كلمة «crack» (صدع)، لكني لم أعثر على رائحة لأي نشاط إبداعي موثق، أو جائزة كبرى أو صغرى، ترافق أيًّا من مرتجى الذين عثرت عليهم. كان هناك مرتجى طربوش، عالم ذرة من أصل شرق أوسطي، عمل سنوات طويلة في أمريكا، ومات منذ خمسة أشهر بأزمة قلبية. ومرتجى محسود الباكستاني الذي يطارد دوليًّا بتهمة الإرهاب بحكم انتمائه لتنظيم القاعدة. ومرتجى عبد الحق، قارئ البخت والمستقبل وحلال العُقد. ومرتجى عيسى كالوك، المدون المغرم بالمغنية شاكيرا، أيقونة الجمال والحب كما يُسميها. وآخرون كانوا مجرد

أسماء بلا خصوصيات كبيرة، تسبح في الصدر الواسع للباحث جوجل.

كان زهري يبالغ كما تصورت، ولعل ثمة قصة فازت بالفعل ولكن ليس في مسابقة عظيمة بأي حال من الأحوال.

أغلقت الكمبيوتر، وذهبت للنوم، تاركًا مظفر يدردش مع امرأة في حاسوبه الخاص، لكن لوحة ليندا، جاءت ملونة كما تجيء دائمًا، ليندا الظل التي رسمتها في ذهني، وسأرسمها في حياتي قريبًا، وقريبًا جدًّا.

١٣

قام الظل من اتكاءته السخية نصف قومة، نزع نظارة القراءة الرقيقة عن عينيه اللتين بدتا لي أصغر قليلًا، من أي يوم آخر رأيتهما فيه، ومد لي يدًا كانت صلبة برغم العروق الزرقاء التي انتشرت على مساحتها بالكامل.

لم يبدُ أنه انتبه إلى مظفر، أو لعله انتبه ولم يبدُ أنه انتبه، وكان مظفر في داخل محيط بصره بلا شك.

قال:

- تبدو متأنقًا بشدة أيها الكاتب، كأنك قادم لتخطب فتاة.

ارتبكت قليلًا من جُملته، وسمعت مظفر يقول:

- بالفعل أستاذ عبد القوي. هو قادم ليفعل ذلك.

عندئذ انتبه الظل إلى أن ثمة مَن يرافقني، حيًّا مظفر بهزة باهتة من رأسه، وقال يخاطبني:

- انتهيت من قراءة «أمنيات الجوع» لحُسن حظك، والآن أقرأ «مدن لا مرئية»، هذه الرواية الحميمة، للمدهش «إيتالو كالفينو» كما ترى. رأيي في «أمنيات الجوع» أنها رواية ممتازة، وتحتمل مدها في جزء ثانٍ، يبدأ من دموع رنيم المهاجرة كما أخبرتني، والتي أتمنى أن تعود من هجرتها، لتصبح ياقوتة مرَّة

أخرى، تبكي عشيقها، وتستعيد أيامها معه. لكن هذه المرَّة ستكتب بنفسك بلا تخاطر لأن بطلك يكون قد مات بالسرطان... بالمناسبة ماذا حدث له؟

غطرسة كنت أتوقعها، لا مشكلة، وجزء ثانٍ لرواية ملعونة. هذا ما كان ينقصني، ورنيم عادت من هجرتها، وأصبحت ياقوتة. نعم كانت ياقوتة حتى آخر صفحة في النَّص، ولكن هل يحدث هذا في الواقع فعلًا؟ هل بالإمكان حدوث نهاية واحدة للواقع والافتراض معًا؟

قلت:

- نعم بكل تأكيد. لقد أسعدني رأيك كثيرًا، وسأحاول كتابة جزء ثانٍ حالما تأتيني الإيحاءات. نيشان حمزة فر من مستشفى الأمراض العقلية الذي أودعته فيه منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، مع الأسف، ولم نعثر عليه حتى الآن. حتى الشرطة تقصت كثيرًا ولم تعثر عليه.

ردد الظل:

- مؤسف فعلًا! لقد أكمل معي القسيس «ماثيو» مسرحية شيطان عجوز في القصر الجمهوري إلى آخر سطر، لكنك سيِّئ الحظ فيما يبدو.

ثم فجأة تغيرت ملامح صوته، بدت أكثر دمامة وحِدة:

- صحيح، ما سبب زيارتكما هذه أيها السيدان؟

قررت ألَّا أتردد، وألج المغامرة بلا أي ارتباك، برغم ملامح الصوت غير المغرية، وتفاصيل وجه الظل الذي كان في تلك اللحظة وجه مُسنٍ منزعج.

- أستاذي بعد إذنك، لقد جئت أتقدَّم للزواج من ابنتكم ليندا. هذا هو الأمر.

الآن نهض الظل من اتكاءته فعلًا، وجلس على حافة السرير الخشبي. وضع رأسه بين يديه وبدا تمامًا كأي أب فوجئ بعريس غير متوقَّع في بيته، وهو يفكر في احتمالات القبول أو الرفض.
أحسست أنا في تلك اللحظة بفداحة ما اقترفته، حين لم أراعِ مكانتي وسني وشهرتي التي فاقت شهرة الظل وأبناء جيله كلهم. فكرت أن النزوات ليست في أثناء الكتابة فقط، ولكنها تحدث في الحياة الواقعية أيضًا. لقد كنت غارقًا في معضلة «أمنيات الجوع»، ولم أتحرر منها لآتي وأغرس نفسي في معضلة جديدة. تمنيت في تلك اللحظة لو عدت دقيقة واحدة إلى الوراء، بفم مغلق، ولسان لا يضخ التجاوزات.

كنت قد تجاوزت السن التي تسمح بالجلوس مبتسمًا بجانب امرأة مزركشة على مقعدين مخمليين في ليلة الزفاف، أو الرقص منتشيًا في وسط حلقة يصنعها المهنئون. أشياء كثيرة هزمتني، والآن أنتظر الهزيمة الكبرى؛ أن أُطرد من بيت الظل وصداقته.

التفت لأوثق تعابير أخي سيِّئ الظن مظفر ولم أجده. كان قد فر من الموقف بلا شك.

الظل لم يطردني، ولا بدا حين نهض من جلسته، ووضع قدميه على حذائه البيتي أسود اللون، أنه سيفعل ذلك. قال في وهن لم ألحظه في صوته قَطُّ:

- حسنًا أيها الكاتب، طالب القُرب، لنذهب معًا إلى الداخل، ونستشير الفتاة إن كانت تقبل أم لا. تعال معي لو سمحت.

قلت بصوت خافت:

- اذهب أنت أستاذي وسأنتظرك.

رد في حزم:

- لا.

تبعته مضطربًا قليلًا، ودخلنا إلى البيت من الباب الذي رأيت الفتاة ذات النهدين الضامرين والشعر القصير المجعد، تخرج وتدخل منه حاملة مكنسة الغبار، وخرج منه الدكتور حزاز أيضًا.

كان الظل يقودني بوهن ملحوظ في ممر ضيق تراصت على جانبيه الغُرف، ولاحظت أن الجدران البيضاء مقشرة الطلاء في أجزاء كثيرة منها، وبعض التُّحف الرخيصة قد عُلِّقت هنا وهناك، منها لوحة مقلدة للإيطالي «جيوفاني» تُمثل فتاة صغيرة تحتضن قطًّا كثيف الشعر، وأخرى ترمز لغضب الطبيعة، من أعمال «سمحان زمزم»؛ وكان رسامًا إثيوبيًّا عاش ومات من دون شهرة.

توقفنا أمام غرفة مُغلقة في نهاية الممر. لم يطرق الظل بابها لكنه فتحه بحذر وطلب مني أن أدخل.

كنت في غرفة صغيرة الحجم إلى حد ما، وردية الطلاء، حوائطها مُزينة بكثير من الزخارف المصنوعة من القصب، والورق المقوَّى، وثمة فرو لحيوان، ربما كان ذئبًا أو ثعلبًا، معلقٌ في الواجهة، وعدة خزائن بلون وردي، موزعة في الأركان، وطاولة عريضة ممتلئة بالكتب، وعليها هاتف محمول من ماركة تبدو حديثة، وكان السرير، الموضوع في وسط الغرفة، مطليًا بالوردي أيضًا.

كانت الإضاءة خافتة للغاية، لكنني استطعت مشاهدة الفتاة الراقدة على السرير، وشهقت.

لم تكن لوحتي المرسومة في الذهن بأي شكل من الأشكال.

لم تكن لوحة لأي عاشق يسعى لرسم لوحة، ولا كانت تصلح حتى لسراب الأحلام المجهضة، عند مَن أُجهضت أحلامهم. باختصار شديد، كانت ليندا الظل فتاة مأساة، مشوَّهة الأطراف، وتبدو كدمية من القماش، محاطة بأجهزة التنفس، وعلى وجهها قناع شفاف تستنشق منه الأكسجين. الآن أتذكر صوتها البعيد، حين وصفته بالصوت النابع من الحلم أو بقايا الحلم. أتذكر لهاثها المتقطع، وأفهم الآن أنه لهاث كائن يقاتل ليعيش، لا لهاث لوحة تتقطع لتبعث الإغراء. لويت وجهي باتجاه الباب وأنا أحس بدوار وثقل في العينين، وخرجت أتعثر والظل يتبعني. كنت أسمع صوته بعيدًا جدًّا:

- هذه ليندا أيها الشهير. إنها مصابة بمتلازمة «بيكر» التي تنتج من خلل في الجينات، وتقضي على العضلات الطرفية أولًا، وتزحف تدريجيًّا إلى التنفس وتوقفه. اكتشفنا المرض بعد عامين من ولادتها، وكافحت معنا لتتعلم وتتثقف، والآن لم يتبق لها في الحياة الكثير. هل تفهم الآن لماذا لم تأتِ لتناقشك وجهًا لوجه أيها الكاتب؟ هل تفهم لماذا انقطعت عن التحدث إليك هاتفيًّا في الأيام الأخيرة؟

نعم أفهم، وأستطيع أن أفهم أكثر لو بكى الظل أمامي، أو تركني أبكي حرًّا في بيته. نظرت إليه. كان وجهه جامدًا جدًّا، ملامحه نُحتت من صخر، وفي عينيه ما خِلته يرقات دمع قتلتها الصرامة.

١٤

لا أستطيع أن أصف تلك الأيام القاحلة التي قضيتها مشرد المشاعر أكثر من أي يوم مضى، وحتى تلك الأيام التي أرقتني في بداية اندلاع معضلة نيشان و«أمنيات الجوع».

لم يكن ذلك بسبب خسارتي للبندا عبد القوي الظل التي كانت ستكون، لو أنني عاشق لها بالفعل، امرأة من المفترض أن تُرتب بيتي وتفاهتي، وتملأني زهورًا ورياحين. فلم أكن في الواقع عاشقًا لها شخصيًّا، وإنما للوحة أنا مَن رسمها بإصرار في الذهن، وأنا من سعى بإصرار أيضًا ليشاهدها ممزقة.

كان تشرُّد مشاعري بسبب تعاطفي مع ليندا؛ التعاطف الإنساني الذي يبزغ حين نشاهد المأساة جلية وثقيلة الوطأة، ولا تمنحنا خيار إلا أن نلومها، نلعنها، ونقف عاجزين عن منازلتها وتدميرها، وتحويل أنقاضها إلى موسم للفرح.

بدأت الآن أتودد للمأساة أن تتوقف عن قتال القارئة المكافحة، أن تدعها تلهث فقط، يتعرج صوتها وهو يتفقد الإبداع، أن تدع العينين شبه المغمضتين هكذا قادرتين على اشتهاء الكتب، واليدين طليقتين لتمسكا بالهاتف المحمول وتديرا أرقامه.

لم يعد يهمني نيشان حمزة لو مات أو عاش أو كتب مئة رواية على نسق «أمنيات الجوع» وأرسلها بتخاطره المُمل الأخرق، لم تعد تهمني النهاية التي سعيت لمعرفتها بقدر النهاية التي لا أريد معرفتها لواحدة مثل ليندا، أردتها زوجة بأنانية مفرطة، ولم تكن هي أنانية حين كانت تطالب بالحياة فقط!

كنت أفزع بشدة حين يرن هاتفي، أتوقع أن يكون الظل صارمًا متغطرسًا، بيرقات دمع موؤودة في عينيه، يخبرني برحيل ابنته. أطالع الرقم الذي يرن وأحس بالارتياح، أنه ليس رقم الظل ولا رقم أحد يعرفه. أرد حينًا وأتمرد على الرد أحيانًا. وقد سعيت في تلك الأيام المحبطة إلى أن أخفف قليلًا من عُزلتي حتى لا ألحق بنيشان، وأُصبح نزيلًا لدى شوقي في مستشفى النخيل الاستشاري.

بدأت أتردد على المقاهي التي كنت أرتادها سابقًا بصحبة أصدقاء أو قرَّاء انتزعوا صداقتي بالقوة من كثرة ما صادفتهم في حياتي، أحكي بترف أحيانًا وأضحك بلا مبالاة، وأعلم يقينًا أنني أنفق بهجتي المصطنعة كلها خارج بيتي، لأن وحدتي كانت كفيلة بتشريد أي بوادر بهجة تحاول أن تبزغ.

كلَّمني الكثيرون على الهاتف، وكلَّمتني نجمة أيضًا عدة مرَّات ولم أرد عليها في أي مرَّة، ودخلت صفحتها على «فيس بوك» في لحظة استرخاء مباغتة، وفوجئت بأنها ألغتني من صداقتها على الصفحة. لكني أستطيع مطالعة محتوياتها بلا إمكانية للتعليق. كانت ثمة صورة جديدة لها، ترتدي فيها زيًّا رياضيًّا أحمر اللون، وحذاء من ماركة «أديداس»، وتُعلن أنها

ستُقدم محاضرة جديدة، تستضيف فيها العدَّاء الدولي المثقف «عيسى وارف»، حامل الشعلة الأولمبية في إحدى الدورات، ليتحدث عن منظومة الصحة والرياضة، ويمنحنا الأمل أن نعيش أصحاء، ونموت بأي شيء إلا اعتلال الجسم، وتُقام المحاضرة هذه المرَّة في نادي «الرشاقة الصحي» الذي يقع في وسط المدينة، وكانت عضوًا في إدارته.

لم يكن ثمة شيء جديد في عواطفها أو قصصها المزرية، ولا عثرت على خاطرة من ذلك النوع الذي اعتادت كتابته على الصفحة، ويحتلب مئات علامات الإعجاب.

في الحقيقة، لم يكن الأمر يعنيني إن ألغتني أو وضعتني صورة لغلاف صفحتها، ولا أدري لماذا دخلت الصفحة أصلًا، ولماذا أتتبع خطوات فتاة صنفتها كارثة منذ عرفتها، ودعم لقائي بها، في كافتيريا «جوانا»، تصنيفي ذلك، ومن المفروض أنها من الماضي الذي يرحل بلا أي ذكريات جديرة أن تبقى.

الفتاة التي تخترع المأساة، وتتراقص على أنغامها الجنائزية، التي تخطط بالورقة والقلم لأمومة بلا مشاعر، قد تحصل عليها وقد لا تحصل، لن تشعل في ذهن الروائي سوى تلك البؤر السخيفة، التي يحاول جاهدًا في كتابته أن تظل خامدة. لقد وضع الكثيرون علامات إعجاب كالعادة، وعلق الكثيرون على الأحمر الناري الذي ترتديه بسخاء، ولم يلتفت أحد ليُلقي ولو تحية مقتضبة على العدَّاء الدولي، حامل الشعلة الأولمبية.

هذا ما أسميه الخديعة الافتراضية، أن تبدو الوجوه مختلفة،

والمشاعر مختلفة، والقلم الذي يكتب في الفضاء الرحب بعيدًا تمامًا عن ذلك الذي يكتب في الحارة، أو الشارع. لقد كنت أعرف، وكاتب العرضحالات المسكين يعرف، وجمهور الافتراض هذا كله لا يساوي عند نجمة أكثر من بعوضة مزعجة تستطيع إبادتها بكل سهولة، حين تريد.

كنت لا أزال مسترخيًا برغم مطالعتي لصفحة نجمة، ودخلت بنفس استرخائي إلى صفحتي الخاصة. كتبت قصيدة من عدة مقاطع تتحدث عن الموت، نسبتُها كذبًا لشاعر مكسيكي لم يكن موجودًا في الواقع. سميت القصيدة «موت قارئة على وشك أن يحدث»، والشاعر «سباستيان أبلينو»، ولم أنتظر لأرى مَن سيُعجب ومَن سيُعلق، ومضيت إلى صفحة الأخت الفاضلة ناريمان كنوع من التسلية لا أكثر.

كانت الصفحة مستعرة في ذلك اليوم، ربما أكثر من أي يوم آخر. انضمت لاستعارها أسماء جديدة مثل: حليق الشارب، والملا عمر، وعاشق المنقبات الوحيد، ولاجئ إلى عينيك، وواحدة اسمها «إسعاف»، تكتب على كل منشور في الصفحة: «النجدة.. النجدة».

كانت ثمة قصيدة غزلية للشيخ مشتاق قال إنها من عيون شعره، وينشرها لأول مرَّة، استجابة لرغبة الجميع، ولم يكن هناك في الحقيقة من بكى أو استعطفه لينشر القصيدة. هي رغبته وحده لا أكثر:

يفور الشعر في قلبي الحزين

وترتسم القصائد في الجبين

وما تحت النقاب رماد وجه

ولكن روعة السر الدفين

وحتى لو تنقبت المشاعر

سأقرأ ما تنقب باليقين

وناريمان إن لاحت فرحنا

وإن غابت تجدنا تائهين

كأن حضورها إيذان عشق

وأحلام تبين ولا تبين

ولولا لحيتي وبياض شعري

لقلت قصائدي في كل حين

لم يضع أي أحد علامة إعجاب سوى الشيخ مشتاق نفسه، تبعته الفاضلة بما خلتها علامة إعجاب فاترة، خرجت من بين أصابع ساخرة. وهب أحدهم واسمه «طالب علم»، في وجه الشيخ متهمًا إياه باتباع الغواية والوجود الدائم في صفحة مريبة، ورد الشيخ بأن شعر الغزل لم يكن محرمًا في أي يوم من الأيام، ما دام عفيفًا وبلا أي غرض سوى إبراز الموهبة. أضاف يخاطب طالب العلم: ما دامت صفحة غواية، لماذا أنت ترتادها؟

حاولت أن أبتسم ولم أستطع، ووجهت خيالي عدة دقائق نحو تلك الافتراضية ناريمان، أتخيلها مرَّة فتاة بضمير مجحف، تؤرجح الغواية المفرطة في سكة أشخاص أبرياء تنتقيهم بعناية، ومرَّة أتخيلها ولدًا صعلوكًا يعد لكتاب فضائحي ذات يوم، ترد فيه تلك التفاهات موثقة، ومجرمة.

خرجت أخيرًا وقد زال استرخائي، وعادت اللوحة الممزقة للبندا الظل تتقافز قطعة قطعة في طريقي.

ولأنني كنت قد أخطأت بشدة حين منحت رقم هاتفي الجوال للشاب شعيب زهري، ساكن «وادي الحكمة» وكاتب القصة التي لا علاقة لها بسرفانتس، فقد انشغل هاتفي في معظم يومه برسائل ملعونة من زهري، تحمل قصصًا قصيرة جدًّا، عليَّ مطالعتها وإبداء الرأي في رسائل مماثلة، ولم تكن لديَّ قدرة على مطالعة حتى إشارة المرور وأنا أقود عربتي في الشوارع. لكن الإلحاح المتواصل من جانب كاتب القصص دحرجني لإلقاء بعض النظرات السريعة، وعثرت على قصة اسمها «همس»، تقول: «همست للغيمة، وسمعت الغيمة همسي». وأخرى اسمها «المطرودة»، تقول: «عثرت على كلبة الجيران في حي يبعد عشرات الكيلومترات عن حينا. سألتها: لماذا أنت هنا يا كلبة؟ ردت: لم يطردني أحد من بيت جيرانكم، حتى وهم بلا فطور ولا غداء ولا عشاء».

هممت أن أرد على التفاهة هذه بأتفه منها، وأمسكت نفسي في آخر لحظة. لن يضيرني أن أخدع موهومًا، وأترك الباقي للزمن الذي سيُعلمه الحكمة كما علَّمني، ولعله سينضج ذات يوم. كتبت له: «مدهش يا زهري، أنت في الطريق الصحيح».

في صباح أحد الأيام رن جرس بيتي بغتة. كانت أم سلمة موجودة، وتدير شؤون البيت بإدارتها المضطربة العرجاء، وكانت حانقة بشدة في ذلك اليوم، لأن أحد ولديها المراهقين شاهد هاتفًا محمولًا حديثًا، من ماركة «سامسونج نوت»، سيُتيح له

التواصل السري مع أصدقائه، وربما فتيات يعرفهن، عبر برامج الثرثرة المجانية مثل «فايبر» و«واتس آب»، وهددها بترك البيت والتشرد في الشوارع وشم البنزين، إن لم تحضره. وعدتها بتوفير ذلك الهاتف لولديها الاثنين، وأشعر أنني لن أصدق في ذلك الوعد، ومواردي، برغم تنوعها، لم تكن بذلك الحجم الذي يُرضي طموح مراهقين لم يعيا يومًا أنهما وُلِدا من رحم أم تكافح لإعالتهما.

فتحت الباب بنفسي، وأستغرب، مَن الذي يطرق باب بيت لا يطرقه أحد عادة، وفوجئت بالفتى شعيب زهري أمامي يرتدي قبعة القش العريضة، ورباط العنق الرمادي المقلوب، ولاحظت أنه من ماركة اسمها «شاشو»، لم أسمع بها من قبل. كانت في فمه بقايا سيجارة، ويحمل دفترًا سميكًا بُني اللون، ويقف بجانبه شخص آخر كان مألوفًا لديَّ لكنني لم أستطع تذكره في تلك اللحظة المباغتة.

كيف عرف زهري طريق بيتي؟ ومَن دلَّه أصلًا إلى رتاج عزلتي المغلق ليكسره بهذه البساطة؟

كنت أفكر وذهني في غاية البؤس. قصص زهري الملعونة تملأ ذاكرة هاتفي القديم من نوكيا، أزيلها وتتناسل من جديد، ولم تعد تشغلني كثيرًا في الأيام الأخيرة، بعد أن اعتدت عليها، فقط يحق لي أن أرتبك الآن، لأن بيتي أصبح منذ اليوم أعزل.

- كيف وصلت إلى هنا؟

كنت أوجه سؤالي لزهري، وأحاول أن أبدو بلا مغص ولا التياع في المصارين، أو دم يتصارع في العروق، ويصرعها.

كان زهري متماسكًا، وفي غاية الاكتمال ككارثة، ومرافقُه الذي كان في نحو الخامسة والستين، كما قدَّرت من تفاصيل وجهه، وركود عينيه، ولحيته المبعثرة بلا نظام، يبحثُ في جيوبه عن شيء، لعله سيجارة أو كيس من التنباك، لا أدري.

رد زهري:

- عادي.. عادي جدًّا.

وأضاف:

- ما دمت تسكن في هذه البلاد، كل مَن يريدك يعثر عليك بلا عناء. يمكنك أن تسكن في القطب الشمالي أو أستراليا، إن كنت تريد أن تعتزل الناس فعلًا.

ثم ابتسم، وكانت أسوأ ابتسامة يخترعها أحد في وجهي، بينما انفلتت بقايا سيجارته، وسقطت على الأرض. الآن شتمت ابتسامته في سري بشتائم لا أستخدمها عادة في العلن، وفي نفس الوقت تذكرت مرافقه. يا الله.. إنه عاصم عجيب المعروف بـ«عاصم ثورة»، أحد الشيوعيين القدامى، وكان قد أمضى سنوات لا بأس بها من حياته في سجون الأنظمة المتعاقبة، وكتب شعرًا متهيجًا كان يوزع فيما مضى على الطلاب في الجامعات بنفس طريقة المنشورات السرية. وقد سمعت مؤخرًا أنه افتتح، أو يسعى لافتتاح دار للنشر، بعد أن تنفض من الشيوعية وكآبتها، ولم أره منذ أكثر من عشرين عامًا.

- عاصم ثورة؟

هتفت مستغربًا. عندئذ مد الرجل يده لتحيتي وهو يقول بصوت جردته عادة التبغ من كل خصائصه:

- عاصم عجيب، لقد انتهى زمن الثورة.

فتحت الباب كاملًا، أدعوهما للدخول.

لم تكن في ذهني أي فكرة عما يمكن أن يربط شيوعيًا قديمًا بكاتب قصص فقير مغمور يقيم في حي تحت الإنشاء، ولا فكرة لديَّ عن سبب زيارتهما لبيتي إلا إذا كانت دار النشر الوليدة هي ما ربطهما. يا إلهي، لا أريد أن أفكر أن قصص زهري ستُنشر، وأن ثمة ورطة في طريقها الآن لتعلق برقبتي، كأن أطالب بكتابة مقدمة للقصص. وبالطبع لا بد أن ألعن «أمنيات الجوع»، كما كانت عادتي كلما انغرست في مأزق جديد.

جلسنا في المكتبة الرئيسية، أي صالة البيت المحشوة بالكتب، وكانت بها مقاعد جيدة من الجلد، وكانت عيون الزائرين واسعة تتجول في الكتب وتكاد أن تذيبها. كل هذه الكتب؟ كان زهري يردد. هل قرأتها كلها حقيقة؟ كان عاصم ثورة يتساءل وقد قام الآن من جلسته. مد يده وانتزع كتاب «قصة عن الحب والظلام» للإسرائيلي «عاموس عوز»، من رقدته على الرف، وكان ضخمًا تستند عليه بقية كتب الرف التي تأرجحت حين أخذه.

- عاموس عوز؟ لم أسمع به من قبل. هل هو يهودي؟

كان يتساءل ولم أُجبه، فليست مشكلتي أنه لم يسمع به، وزهري نهض أيضًا، اختطف نسخة من إحدى الروايات الرديئة، كانت أُهديت إليَّ في رحلة من رحلاتي، ولم أقرأ منها صفحتين.

كان وقتًا موحلًا وسخيفًا أنفقته في صحبة المقتحمين، زهري وعاصم ثورة، ولم أقدِّم لهما حتى كوب ماء. هما يحاولان إطالة

الوقت بالصمت وتقطيع الجمل وتكرارها أحيانًا، وأنا أحاول تقصيره بجلافة لا أعرفها إلا نادرًا، وتجيئني غصبًا إن كنت بحاجة لجلافة مؤقتة.

الذي حدث هو أنني عثرت على جُملتي المجاملة التي قلتها في حق زهري يوم أسمعني «دون كيشوت الذي لا علاقة له بسرفانتس»، في حي «وادي الحكمة»، حين ذهبت برفقة أخي مظفر للبحث عن نيشان، وجمل أخرى مماثلة كتبتها ردودًا بلا قصد محدد، على إلحاح رسائله التي ترد على هاتفي الجوال، وفقرات أخرى لم أقلها أو أكتبها حقيقة، لكنها صِيغت نيابة عني، ووُضع كل ذلك، أو رُص بعناية شديدة، وتحته اسمي على ظهر الغلاف لمجموعة قصصية اسمها «أفشل مدينة ـ أسوأ بلاد»، للكاتب شعيب زهري، وتصدر قريبًا عن دار «عدم الانحياز» التي يملكها الشيوعي القديم عاصم ثورة ويطمح لتقديم مؤلفين جُدد موهوبين عبرها.

إذن كان هذا هو رابط الرفقة التي آذت عزلتي، ونهبت وقتي. يا لغبائي حين وضعته احتمالًا وليس حقيقة، وأنا أفتح الباب وأواجه الرجلين. حقيقةً لم يكن هذا الموقف جديدًا، ولطالما تعرضت لمواقف مشابهة، وأذكر أنني عثرت ذات يوم على رواية عاطفية موقعة باسم «نبض الحياة»، وعلى غلافها تعليق مشجع لي لا أعرف مَن صاغه ومَن وضعه، ولا أستطيع أن أعرف لأن الرواية نُشرت على نفقة المؤلف، والمؤلف نفسه كان شبحًا لأن لا أحد يعرف مؤلفًا أو مؤلفة اسمها نبض الحياة. أيضًا كنت أصادف كثيرًا في الصحف حوارات معي، لم أجرها،

وكانت تجميعًا من حوارات أجريتها من قبل، صِيغت بطرق جديدة، أو أخرى أجراها أحد مع نفسه، ونسبها إليَّ.

بدأت أجادل في مسألة إحراجي بآراء لم أتفق عليها مع أحد، وربما تكون مجاملات لا أقل ولا أكثر، وعن استغلال اسمي من دون علمي، فنفى زهري، وهو يقتلني بابتسامته المشؤومة، عدم علمي لأنني أعلم الآن، وحتى لو لم أكن أعلم ونُشر الكتاب، فلن يضيرني الأمر شيئًا، وهناك ملاحظات قلتها بالفعل وكتبتها في رسائل. واشتعل عاصم ثورة حماسًا ذكرني بماضيه حين كان يزورنا في الجامعة، ويجادل في أركان النقاش السياسية التي كانت من سمات الحياة الجامعية في ذلك الوقت.

كانت نظريته تخصه وحده ولا تصلح لتعميمها كنظرية يتبعها الجميع، وهي أن المؤلف الشاب مثل الشتلة المغروسة حديثًا، ستنمو مائلة أو تموت صغيرة، إن لم يروها أحد، وستورق وتثمر وترمي بالظلال إلى أبعد مدى، إن اهتم الجميع بسقايتها.

كان يردد:

- أنت بستاني قديم.. بستاني يستطيع تعديل الأغصان إن كانت مائلة، ويستطيع اقتلاع الشجرة كذلك. ربما لم تحب قصص الأستاذ زهري، لكنك ستُحبِّبها لآخرين إن قلت إنها قصص تستحق القراءة. ماذا تقول الآن؟

قلت وأنا أتنفس بصعوبة:

- لا شيء. لا شيء حقيقة. سأقوم بأداء دور البستاني، ولا ذنب لي إن لم ينجح الدور، وماتت الشتلة برغم رعايتي لها.

قال عاصم:

- جميل. جميل جدًّا.

وأضاف زهري، ولسانه يتلاعب بشفتيه، يرطبهما:

- هذا جيد.

كانت الفقرة الأخيرة جاهزة لدى الرجلين، ويوشكان على تقديمها، وكنت أعرف أنها كذلك. وأحسست من تململ عاصم، ووقوف زهري وجلوسه عدة مرَّات بلا هدف، أن ثمة شيئًا خطيرًا وربما قاتلًا سيُضاف إلى جلسة البؤس تلك، واخترت أن أضيفه أنا لأخفف الوقع على نفسي:

- إذن تريدانني أن أُموِّل طباعتها أيضًا، أليسِ كذلك؟ كم تُكلِّف؟

بدا أن عاصم ثورة قد ارتاح بشدة لذلك الطرح، لأن عينيه الضيقتين المكدودتين من ثقل العمر، ابتسمتا، وشاربه الأبيض الهزيل تراقص قليلًا في وجهه، وزهري كأنه زغرد لأنني سمعت ما يُشبه زغاريد الفرح تتقافز من حلقه. كنت في قمة البؤس وأحاول الخروج من تلك الأزمات المتتالية، وببساطة شديدة، وبلا أي جدال إضافي مع نفسي، وافقت على تمويل مجموعة زهري بمبلغ ليس كثيرًا ولا فوق استطاعتي، إضافة لتلك الآراء المغروسة على ظهر غلافها، على أمل أن ألغي واحدة من الأزمات، وأتفرغ لأزمة نيشان، وأزمة المسكينة ليندا الظل.

لن يلومني أحد على ذلك لو عرف الدوافع، وأكيد سيعثر زهري على قارئ ينبهر بكآباته ويروج لها. وأعرف، من خبرتي الطويلة في هذا الدرب، أن أمراض الملاريا، والحمى الروماتيزمية، والسعال الديكي، لو كُتبت قصصًا بواسطة أحد ما،

لوجدت مَن يتذوقها، وينحني إجلالًا لها. وجروح الجسد ودماملِه وإفرازاته المزرية، لو حُكيت بأي لغة، لصاح أحدهم وهو يقرأها: يا الله.. يا الله رائعة. ولا أنسى رواية أمريكية، اسمها «البول السكري»، كل ما يحدث فيها أن الراوي يذهب إلى الحمام ويعود ليتابع إحدى مباريات كرة القدم، قبل أن يدخل في غيبوبة، قد حصدت مبيعات هائلة في إحدى السنوات، من جرَّاء تهافت القرَّاء على شرائها.

قلت لزهري، والضيفان، غير المرغوب في بقائهما في بيتي دقيقة أخرى، يقفان للانصراف، وكنت قد لاحظت أنه ترك دفتره البُني على الطاولة متعمدًا أو ناسيًا، لا أدري:

- لا تنسَ دفترك لو سمحت.

رد:

- لم أنسه، هذا لك لتُلقي نظرة على القصص كاملة، أكتب في العادة في دفترين.

كانا قد ذهبا حين قفزت فجأة إلى ذهني نظرية سوء الظن التي تلازم أخي مظفر منذ وعى وأساء ظنًّا لأول مرَّة.

هل فعلًا يكون ما حدث وزلزل حياتي اختراعًا ضالًّا من شعيب زهري، من أجل هذه اللحظة فقط، لحظة موافقتي على دعم أدبياته الغريبة؟ وأن نيشان حمزة مجرد مطية سلسة القياد امتطاها الولد المتعلم الواهم بإبداعه، ليصل إلى ما وصل إليه الآن؟

لكن الأمر لا يستحق كل ذلك، وكان يمكن لزهري أن

يضغطني بطريقة أقل خطورة من هذه، كأن يرسل إليّ صديقًا أعتز به مثلًا، إضافة إلى أن الإمام «حج البيت» أكد أن نيشان حمزة مجنون بالفعل وتعودوا على إرباكه الموسمي، ولا أعتقد أن رجل دين مثل «حج البيت» يمكن أن يُصبح أداة أيضًا في مشروع مزرٍ مثل هذا؟ أيضًا تحدَّث «حج البيت» عن سائق شاحنة من أهل نيشان اسمه زكريا، كان موجودًا في «وادي الحكمة»، وتزوج من فتاة إثيوبية وهاجر معها، وقد كان سائق الشاحنة إحدى شخصيات الرواية.

لا أريد أن أوجه هواجسي تجاه «حج البيت»، لا أريد، لكنها تتوجه إليه غصبًا عني.

في النهاية، أين ذهب نيشان بعد فراره من مستشفى النخيل؟

حقيقةً أين ذهب؟

هذا ما لم أستطع معرفته. ولا حتى احتمال معرفته.

أجَّلت هواجسي قليلًا، وبدأت، بدافع الملل واليأس، أقلب الدفتر البُني الذي يحوي القصص التي كتبها شعيب زهري كلها كما قال، وكان ثقيلًا وممتلئًا، ومكتوبًا بخط دقيق متأنٍّ، كثير الشبه بخطوط المراهقات. قرأت:

> **الزرافة: وضعوها في قفص صغير، في إحدى حدائق الحيوان المكتظة. حين تفقدوها بعد عدة أيام وجدوها ترضع القفص الصغير من ثدييها.**
>
> **مستيقظ كنملة: سألني أحد المتسولين ذات يوم: هل تستطيع أن تنام من دون أن تُعطي صدقة لمتسول؟ قلت: لا تخف، أنا مستيقظ كنملة.**

تضارب: بالقرب من القصر الجمهوري عثرت على أخبار متضاربة. استمعت إلى بعضها، وتغير مصيري.

حب: تقول حبيبتي: ما الحاجة إلى القلوب ما دامت لا تدفع المهر أو تتزوج؟ أرد عليها: هي من يعقد القران.

مللت بسرعة، ولم أفهم أي مغزى لتلك القصص التي بدت لي مجرد كلمات متراصة خالية من أي نبض أو إشعاع قصصي، يشد للقراءة، وبدأت أبحث عن قصة «أسوأ مدينة - أفشل بلاد»، التي تحمل المجموعة اسمها، وربما تكون ذات دلالة أعمق، وعثرت عليها أخيرًا في منتصف الدفتر، لأُفاجأ بوجود العنوان وتحته مئة علامة استفهام.

لقد كانت هذه هي القصة.

١٥

لا أعرف متى اجتاحتني، بجدارة أكثر، هواجس سوء الظن التي ذكرتها، واستولت عليَّ بالكامل. لكن ذلك غالبًا ما حدث بعد عدة أيام من وفاة ليندا الظل، حين احتل مرض وهن العضلات تنفُّسها كله وأوقفه في النهاية.

لم يكن الأمر هينًا قَطُّ، ولن يكون كذلك لأيام وربما أشهر، وقد ضاعت لوحتي الممزقة الآن بجدارة. وكنت أُعيد لملمة أجزائها في ذهني وإعادتها للبهاء، كلما انفردت بنفسي.

كان عبد القوي الظل قد كلَّمني بنفسه عصر أحد الأيام. كنت غارقًا في لُجة أيامي المعتادة، بعد أن كسرت عزلتي، جالسًا وحدي في أحد المقاهي أنتظر ناقدًا أكاديميًّا وعدته باللقاء. كنت أفكر في كل شيء، ولا شيء محددًا، حين باغتني بمكالمة هاتفية توجست منها لكنني رددت.

قال:

- تعال لندفن قارئتك المفضلة أيها الكاتب، لقد ماتت ليندا.

ثم أغلق الخط.

كان صوته مخنوقًا هذه المرَّة، صوت مُسن حقيقي يتهرب الكلام من شفتيه، وأخاله بذل جهدًا جبارًا ليجعل الصوت مخنوقًا فقط، لا مشنوقًا بحبال عبرات الآباء حين يفقدون أبناءهم أو بناتهم.

لم أستطع أن أقود عربتي، ولا حتى أن أقترب منها. تركتها حيث كانت، وركبت عربة أجرة توقفت أمامي فجأة من دون أن أشير لها، وفوجئت أن السائق الذي كان شابًّا إلى حد ما، يرتدي الملابس الوطنية، وتضخمت شفته السفلى بسفَّة من التنباك. كان يعرفني، وتوقف بناء على تلك المعرفة، في زمن تغطرست فيه سيارات الأجرة بحيث لا تقف لأحد.

لم يكن السائق يعرفني ككاتب، ولكن كمُدرس للرياضيات. كنت درَّسته ذات يوم في المدرسة المتوسطة، ولم ينسَ أنني من أكثر الذين أساؤوا إليه في حياته، حين كنت أعاقبه باستمرار لإهماله الشديد، وعدم استيعابه للدروس، واضطر لترك المدرسة بسببي ليعمل في عدد كبير من المهن المتدنية، حتى انتهى سائقًا لعربة أجرة.

كان يسرد عليَّ أخطائي كلها: إيقافه ساعات طويلة في الصف وزملاؤه يتهامسون، شده من أذنه أمام التلاميذ، وصفه بماسح الأحذية مئات المرَّات، وذهني يلتقط شيئًا ولا يلتقط أشياء، بينما أغنية فجة تقول كلماتها: «أكلني إندومي وريل في هدومي، وقال لي روحي نومي»، تتصاعد بصوت صارخ من آلة تسجيل العربة. اضطررت للاعتذار له بصوت واهٍ، بعيد كل البعد عن أصوات المدرسين الخشنة، عن قسوتي السابقة التي ظننتها

في صالحه، وكنت حقيقة لا أذكر كل تلك الطُّرق العقابية التي ذكرها ولا أظنها من طبعي حتى حين كنت مدرسًا. قبل السائق اعتذاري بطيب خاطر، وأنزلني أمام المقبرة التي حددها لي صديق من أصدقائي وأصدقاء الظل، في اتصال هاتفي، وأبى بشدة أن يأخذ أجرته وهو يردد: عظَّم الله أجركم في الفقيدة، إنا لله وإنا إليه راجعون.

دفنا القارئة المميزة في مقبرة السلاطين، وكانت مقبرة قديمة تقع على طريق مهمل في أحد أطراف المدينة. كان للمقبرة صيت كبير، وتاريخ من عهد ممالك قديمة، وقيل إن ابنة آخر سلاطين مملكة «الفونج»، قد دُفنت فيها، لكنها لم تكن توحي بذلك مُطلقًا، ولا كان فيها سوى الحصى، والتراب القاحل، وبعض الشجيرات الهزيلة التي تحيا على استحياء في موسم المطر، وتموت بعمق عند الجفاف. وقد اختار الظل تلك المقبرة بنفسه، رغم معاناته، وأعرف أنه يعشقها، وأمضى عدة أشهر من عمره يسكن في عشة قريبة منها، ويدخلها عدة مرَّات في اليوم، يدفن مع الناس موتاهم، كما أخبرني، حتى يستطيع كتابة واحدة من مسرحياته التي تدور حول الموت، وأظنها مسرحية «يد السلطان» التي عُرضت في نهاية السبعينيات، وحضرتها وأنا لا أزال مراهقًا بعيدًا كل البُعد عن سكك الفن والكتابة.

كانت مساحة الفقد كبيرة بلا شك، وكان التشييع محتشدًا بالكثيرين ممن أعرفهم ولا أعرفهم. شاهدت سونيا الزويني، صاحبة محلات تصفيف الشعر المغربية، غارقة في أسود الحزن، ولم أكن أظن بأنها تعرف آل الظل لدرجة أن تشارك بتلك الهيئة

في حزنهم. شاهدت البروفيسور حزاز، معالج الطب الانعكاسي نشطًا كعادته، وإن بدا وجهه مختلفًا قليلًا، والممثل اللامع مصطفى الخليفة، وعددًا من كُتاب الشعر والرواية والمسرح، ومغنية قديمة معتزلة اسمها زكية البلبل، أخبرني الظل ذات يوم في إحدى لحظات مزاجه المعتدل، أنه كان يعشقها وتعشقه. واقترب مني أحد الكتاب وكان شابًا غزير الشعر وله رواية واحدة اسمها «حنين أجوف»، صدرت منذ عامين، أخبرني وهو يهمس أن الفقيدة كانت تحدثه هاتفيًا، وتتحدث عن موهبته وروايته بهيام، وترجوه أن يكتب غيرها وغيرها لأنه صاحب أسلوب متميز، وأنه لم يتخيلها قَطُّ وهو يسمع صوتها المتعرج، ولهاثها المتقطع المثير، فتاة كانت تقاتل لتعيش.

إذن لم أكن وحدي من هامت ليندا بكتاباته، ولم أكن وحدي من رسم لوحة مبهرة للقارئة، ربما كان يستعيدها أيضًا في ليالي الجفاف. فقط وحدي من استطاع رؤية اللوحة ممزقة.

في قمة اندماجي في جو المأساة المسيطر، لمحت نجمة، وحاولت أن أبعد وجهي عن عينيها بقدر ما أستطيع لكنني أخفقت. كانت هي نجمة التي تجددت ذات يوم بفعل خطتها لاختراع الأُمومة بلا مقومات، ولم تعد لقديمها الكلاسيكي مرَّة أخرى، تسير في جنازة ليندا، وقد تبهرجت، وتلوَّنت بالأصباغ، وتركت شعرها الذي جعلته أشقر هذه المرَّة، يتمدد بإغواء من تحت غطاء الرأس الخفيف. كانت في الواقع هيئة فتاة تزف عروسًا، لا تدفن فقيدًا.

بغتة وجدت نجمة بجانبي، قريبة جدًّا مني وتكاد تلتصق بي

برغم فداحة المأساة، وعيون الرجال التي يمكن أن تنتفض من كل امتصاص آخر، وتندق فيَّ وفيها. ارتبكت، وكانت تخاطبني:

- لماذا هذا التجاهل أستاذي؟ لماذا لا ترد على مكالماتي؟

لم أعرف بماذا أُجيب، وعدم الرد على مكالماتها كان إقرارًا حتميًّا، أقرته مشاعري، وأيدته النزعة الإنسانية التي لا أملكها وحدي بلا شك، ولكن يملكها معظم الناس. أوشكت أن أقول لها: ولماذا أرد علىَ فتاة كارثة؟ وفي نفس الوقت خفت من انهيار أو هستيريا، في مكان حزين ووقت غير ملائم لحدوث النزوات، وأعرف من خبرتي أن تلك الشخصيات قادرة على اختراع أي شيء من أجل لا شيء. قلت:

- لا أجد وقتًا، أنا منشغل بشدة.

قالت وأخالها تأكدت من احتيال جُملتها جيدًا قبل أن تُطلقها:

- كنت أتصل لأُخبرك برأيي في ثلاث روايات لك، قرأتها في الفترة الماضية. أنت كاتب رائع، وتسرني صداقتك جدًا وأيضًا نصائحك التي ستُحسِّن كتابتي في المستقبل.

لم تقل أسماء الروايات الثلاث التي قرأتها، وأقسم إنها لم تقرأ لي نصف صفحة في مؤلفات من آلاف الصفحات، ولولا جو المأساة المهيمن لكنت سألتها عن تلك الروايات، وأغرقتها في استفسارات عن الشخوص والأحداث، وبماذا خرجت من القراءة. بالطبع لن أفعل، وهي تعرف ذلك تمامًا، وتستطيع أن تقرأ بؤسي وبؤس الأشخاص الحقيقيين وهم يشيعون ليندا الظل.

كانوا قد بدأوا طقوس الدفن، حين تركتني نجمة وهي تلح

أن تلتقيني قريبًا، وأصبح بإمكاني الآن أن أتنفس، وأن أبكي بصمت، وأن أمد يدي لأساعد في إنزال ليندا إلى الغياب، وأيضًا أحاول إسناد الظل حتى لا يسقط برغم تماسكه الذي أحسسته تماسكًا هشًّا، قد يتفكك في أي لحظة. كنت أستمع، بلا انتباه كبير، إلى عظة رجل الدين المتوفر، وهو يرصفها بتأنٍّ وخبرة، حين شاهدت لقمان الظل، أو «لوقو ذا شادو» يأتي راكضًا من بعيد. كان قصيرًا وبدينًا، مضفر شعر الرأس، يرتدي نظارة بمرآة عاكسة صفراء اللون، وسروال الجينز الممزق عند الركبتين، وتيشيرتًا عليه رسمٌ ملونٌ لمغني الروك آند رول الراحل مايكل جاكسون.

كان المساء قد حل، ولا بد أن لوقو ما زال يملك شيئًا من زخم مجتمعنا برغم هجرته الطويلة، وهيئته التي لا تُلائم البلاد، وجاء حين علم باحتضار أخته.

١٦

قلت إن هواجس سوء الظن بدأت تغتالني، خصوصًا حين لم يظهر نيشان حمزة في حياتي ولا في زخم المدينة، كل تلك الأيام.

بدأت أفكر بجدية، في أشياء كانت سالبة في الحكاية، ولم أنتبه لسلبيتها في لحظات الارتباك العظيمة بعد أن باغتني نيشان باضطرابه في نادي «الرفاق» وحكى لي بعد ذلك، ما يمكن أن يكون روايتي، أو معظم روايتي، في بيت أمي الروحية ملكة الدار. ولعدة أشهر بعد ذلك والحكاية تترنح بلا حل.

انتبهت لأول مرَّة أن العسكري أصيل موقادو، الذي حاول الانقلاب على السُّلطة، وأُعدم في متن الرواية، بينما فر في الواقع إلى تشاد كما قال نيشان، لا يمكن أن يكون سرًّا مختبئًا في وطن أعيش فيه منذ وِلِدت وأعرف وعكاته وانقلاباته وصفاءه وتعكره، لكن لم يصادفني من قبل قَطُّ تمرد أو انقلاب عسكري نفَّذه مَن يُدعى أصيل موقادو.

نقبت في ذاكرتي أكثر، استحضرت جميع الانقلابات العسكرية، التي خربشت جدار السُّلطات، أو هدتها بالفعل، منذ

الاستقلال حتى الآن. عثرت على انقلاب العقيد موسى جاد الكريم الذي استمر ليومين فقط واندحر، وانقلاب اللواء فضل الله زين الكمال الذي بقي عدة أشهر وانتهى بالدم، والمراهق سامح الذي احتل الإذاعة ذات صباح؛ وفاءً لرهان مع حبيبته، والشاويش كاكا كوكو المنحدر من منطقة جبال النوبة في غرب البلاد، وكان ينادي بالانفصال عن العرب، وحتى انقلاب سابتا الهزلي الذي نفَّذه مجنون من حي «القمائر» بسلاح من الخشب، وهو يقهقه، ولم أعثر على انقلاب أصيل في أي ركن من أركان الذاكرة.

هاتفت صحفيين ومحللين سياسيين ضليعين في تقصي الأحوال وتضخيمها عند الضرورة، وأكدوا لي بضراوة خلو التاريخ الوطني من أي تمرد يحمل هذا النمط ونفَّذه عسكري ينحدر من تشاد، إلا إن كان قد نفَّذه مقربون من الحكم، وأخفته السُّلطة حفاظًا على هيبتها.

إذن لا تزال تلك النقطة غامضة، وسأسعى لمحاولة حل غموضها إن حصلت على عون.

شيء آخر اكتشفته في تلك الأيام، وهو تباطئي الشديد، في أثناء تركيزي على نيشان، في التأكد من وجود ممرضة في الواقع اسمها ياقوتة، عملت في مستشفى الأمراض النفسية ذات يوم، وهاجرت بعد ذلك إلى ليبيا المحررة تحمل اسمًا آخر. ليس من الضروري أن أنبش علاقتها بنزيل سابق في المستشفى، اسمه نيشان حمزة، ولكن مجرد وجود ممرضة بهذا الاسم حتى لو كانت غير موجودة الآن، يمنح النَّصِ الملعون شرعية أن يكون حقيقيًّا.

في مستشفى الأمراض النفسية الحكومي، الذي كان مبنى قديمًا ومهلهلًا أُنشئ في زمن الاستعمار، وما زال يمارس دوره في احتضان المرضى الفقراء، حتى لو كان احتضانًا سيئًا أو باردًا بلا عواطف، والذي دخلته برفقة طبيب أعرفه، وتطوع للتعاون، عثرت لدهشتي الشديدة على شخص أعرفه، ولم يخطر ببالي قَطُّ أنه يمكن أن ينتهي مقيدًا بسلاسل في قدميه، وفي هذا المكان بالذات. كان يمشي في الحوش متعثرًا، وحوله العشرات من الذاهلين، وثمة حراسة خشنة تتوزَّع بين الممرضين، وبعض عناصر الأمن الذين يرتدون زيًّا أزرق، موجودة في المكان.

صرخت غير مصدق:

- أفرنجي.. جوزف.

فالتفت رجل الجنوب، المتشرد السابق في سوق عائشة الشعبي، عاشق الجنية «دلدونة»، الذي عيَّنته من قبل مراقبًا لنيشان ولم يؤد المهمة قَطُّ، ناحيتي. كانت عيناه حمراوين، حول شفتيه تورم طفيف، وكأن يديه كانتا طرفًا في عراك ما، لأنهما كانتا مضمدتين بالخرق.

- أفرنجي..

لم يبدُ أنه تعرف إليَّ بالرغم من أنه التقط اسمه يقفز مني تجاهه، لأن وجهه ظل جامدًا، ولم يبدُ عليه أي انفعال. كان من الواضح أن جوزف أفرنجي في ورطة أخرى غير ورطة مخيم الترحيل الذي كان فيه، تمهيدًا لقذفه إلى بلده الجنوب. من المؤكد أنه اعتدى على أحد هناك، أو لعله اخترع انفصام الشخصية، حتى يظل هنا، يفكر في حيلة جديدة تُخرجه وتُعيده

متشردًا في سوق عائشة. أقر بأنني كنت نسيت أفرنجي أو انشغلت عنه بأموري، ولم أسعَ لتخليصه من مخيم الترحيل، والآن يواجهني إما مجنونًا حقيقةً وإما ممثلًا قادرًا على أداء حقيقة الجنون.

اندفعت نحو جوزف أفرنجي، ولم أستطع التحرك، وكدت أسقط، ذلك أنني نسيت أن قدميَّ، أنا أيضًا، كانتا مقيدتين بسلسال خشن من الحديد.

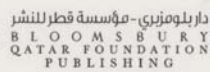
«عثرتُ لدهشتي الشديدة على شخص أعرفه، ولم يخطر ببالي قَطُّ أنه يمكن أن ينتهي مُقيدًا بسلاسل في قدميه، وفي هذا المكان بالذَّات. كان يمشي في الحوش مُتعثرًا، وحوله العشرات من الذاهلين، وثمة حراسة خشنة تتوزَّع بين الممرضين، وبعض عناصر الأمن الذين يرتدون زيًّا أزرق».

في هذه الرواية، المحتشدة بالأحداث الغرائبية المُدهشة، يصادف القارئُ عددًا من الشخصيات التي تتأرجح بين الخيال والواقع، بين الوهم والحقيقة، حيث يُفاجَأ كاتبٌ بخروج إحدى شخصيات رواياته السابقة وتجسُّدها كائنًا من لحم ودم. وعلى مدار صفحات الرواية تُصبح هذه الشخصية عِبئًا على صانعها، في سَردٍ مُشوِّقٍ، وتأمُّلٍ عميقٍ لعلاقة الروائي بمخلوقاته الخيالية.

أمير تاج السر، روائي وكاتب من السودان، صدر له العديد من الأعمال الروائية وكُتب السِّيرة، منها: مهر الصيَّاح، توترات القبطي، زحف النمل، العطر الفرنسي، اشتهاء، قلم زينب، إيبولا ٧٦. وصلت روايته «صائد اليرقات» إلى القائمة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) ٢٠١١، وروايته «٣٦٦» إلى القائمة الطويلة للجائزة نفسها ٢٠١٤. تُرجمت أعماله إلى عدة لُغات، منها: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية.



www.bqfp.com.qa
ISBN 9789927101885
90100
9 789927 101885



دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY QATAR FOUNDATION PUBLISHING

